الباب الثانى

الطريق إلى جماعة المسلمين

وفيه أربعة فصول :

الفصل الأول : الأحكام الإسلامية .

الفصل الثانى : خطوة الرسول الأولى فى دعوته (بناء الجماعة) .

الفصل الثالث: معالم من سيرة الرسول فى بناء الجماعة.

الفصل الرابع : طبيعة الطريق إلى جماعة المسلمين .

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

الأحكام الإسلامية

لا تبعيض فى الأحكام الإسلامية :

١ ـ عند إهلالة الدعوة الإسلامية بقيادة الرسول ﷺ فى مكة المكرمة كانت تتنزل التوجيهات [١] الربانية بحسب حاجة الجماعة إلى تلك التوجيهات وبما تتطلبه المرحلة التى تعيشها الجماعة .

وهذه القاعدة لا تحتاج إلى كثرة أدلة لوضوحها . قال تعالى : ﴿ **وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا** (١٠٦) ﴾ [الإسراء] .

قال الطبرى : (ونزلناه تنزيلا يقول تعالى ذكره :فرقنا تنزيله ،وأنزلناه شيئا بعد شىء) [٢] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (أنزلنا القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا فى ليلة القدر ثم أنزل بعد ذلك فى عشرين سنة) [٣] .

٢ ـ وتلك القاعدة تختلف اليوم بالنسبة للجماعة الإسلامية فى حالة إرادتها السير فى طريق إقامة جماعة المسلمين من جديد فى حياة الأمة الإسلامية. حيث إن التوجيهات الربانية قد اكتملت والسنة النبوية قد تكاملت وبنيت . وأصبح المسلم أو الجماعة الإسلامية مطالبين بكل هذه التوجيهات الربانية والسنة النبوية كاملة دون تبعيض .

ولأن أحكام الإسلامية ترفض تبعيض الإسلام،وتحكم على من فعل ذلك بالخسران والخزى فى الدنيا والعذاب الشديد فى الآخرة . قال تعالى : ﴿ **أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** (٨٥) **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ** (٨٦) ﴾ [البقرة] .

---

(١) انظر :مباحث فى علوم القرآن للشيخ مناع القطان ص ١٠٥ .

(٢) تفسير الطبرى ١٥/ ١٧٩ .

(٣) انظر : الدر المنثور ٤ / ٢٠٥ ، وهو فى تفسير الطبرى ٥ / ١٧٨ .

إن مسايرة الأنظمة الكافرة والخضوع لها بأخذ ما تسمح به تعاليم الإسلام وترك ما تمنع مزاولة المسلمين له بأى دعوى كانت ، أمر شنيع توعد الله سبحانه وتعالى فاعله بضعف الحياة وضعف الممات والإخراج عن حظيرة الإيمان وملة الإسلام .

قال تعالى : ﴿ **وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (٧٤) إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً (٧٥)** ﴾ [الإسراء] .

قال الطبرى عند هذه الآية : (يعنى ضعف عذاب الدنيا والآخرة) (١) .

وقال القرطبى : (أى لو ركنت لأذقناك مثلى عذاب الحياة فى الدنيا ومثلى عذاب الممات فى الآخرة وهذا غاية الوعيد) (٢) .

وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (٢٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦)** ﴾ [محمد] .

فالآية الكريمة اعتبرت الذين يطيعون الذين كرهوا ما نزل الله ولم يحكموا به ولو فى بعض الأمر مرتدين .

والذى دفعنى لإثارة هذه النقطة أن كثيرا من أفراد المسلمين لا يفعلون ولا يطبقون من تعاليم الإسلام إلا ما يتمشى مع أنظمة البلاد التى يقيمون فيها ، بل بعضهم يقومون بنصرة وتشجيع الابتعاد عن بعض أحكام الدين ؛ لأن السلطة السياسية تمانع فى ذلك ، وكذلك كثير من الجماعات التى تدعو إلى الإسلام فى بلاد العالم الإسلامى فإنها لا يمكن أن تأخذ الصفة الرسمية بالدعوة إلا بعد أن تقدم لائحة عملها الداخلية إلى الجهات المختصة فى الدولة التى تريد العمل فى سلطانها ، ولا بد أن تحتوى تلك اللائحة على ما هو مباح ، وتبتعد عن كل محرم فى نظام تلك الدولة من تعاليم الإسلام ، حتى تحظى بالموافقة عليها ، ولو علم أولئك الأفراد ، أو تلك الجماعات أن فعلهم ذلك يعنى مساعدة حكم الكفر على الاستمرار والبقاء ، وأنهم بفعلهم هذا يقضون على أمهات الأحكام والتعاليم الإسلامية ، لما أقدموا على ذلك ولأدركوا أنهم بعيدون عن روح الدعوة الإسلامية التى ينتمون إليها ، إنهم يهدمون بذلك أحكام الجهاد ونظام الحكم ومبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والتواصى بالحق والصبر عليه .

---

(١) انظر : الطبرى ١٥ / ١٣١ .

(٢) انظر : القرطبى فى الجامع ١٠ / ٣٠١ .

إن الدول القائمة فى العالم الإسلامى كافة تمانع فى الحكم بما أنزل الله تعالى ، ورفع راية الجهاد ، وتأمر بالمنكر ، وتنهى عن المعروف ، وتقمع من طلب عكس ما تريد ، وإن الذين يسيرون فى ركابها وبحسب ما تريد رغبة فى التعايش السلمى معها مخطؤون ، وعليهم أن يتوبوا ويقلعوا عن الذى هم فيه ويستغفروا الله تعالى :

متى تطبق الأحكام ؟ :

والذى يمكن أن نقرره هنا هو أن الفرد أو الجماعة فى الأمة الإسلامية يمكن أن يأخذ من أحكام الإسلام بحسب ما تقتضيه أحواله ، وموقعه فى الحياة ، وتطوره فيها ، شريطة أن يؤمن ذلك الفرد أو تلك الجماعة بكل أحكام الإسلام ، واستمراريتها ، وأن يظهر ذلك الإيمان من خلال المشاركة الفعالة كل فيما يخصه من أحكام الإسلام .

بمعنى أن الفرد المسلم مثلا يمر بمرحلة طفولة فعليه أحكام من أحكام الإسلام دون غيرها، وكذا مرحلة الرجولة على الإنسان فيها أحكام إسلامية تختلف باختلاف حالاته ، فقد يكون فيها متزوجا أو غير متزوج ، فله فى كل حالة أحكام من أحكام الإسلام تخصه دون غيرها ، أو متزوجا وله أولاد ، أو ليس له أولاد فله أحكام من الإسلام تخصه دون غيرها ، وقد يكون ابنا لوالدين فله أحكام ، وقد يكون صاحب تخصص لا يوجد غيره فى البلاد كأن يكون طبيبا أو عالما . . . فتكون أحكام الإسلام الكفائية بالنسبة له أحكام عينية، إلى آخر أحوال الفرد المسلم ، فهو مطالب بأحكام دون أحكام ، ولكن هناك أحكام إسلامية عامة تلزم كل مكلف من المسلمين مثل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وهو مبدأ يشمل كل جوانب الحياة . كما جاء فى قوله ﷺ : عن تميم الدارى رضي الله عنه : « الدين النصيحة (ثلاثا) قلنا لمن ؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » (١). بل وفى قمتها نصيحة الحاكم وتقويمه كما روى عن جابر رضي الله عنه : « سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله » (٢) .

وكذلك الجماعة الإسلامية بحكم كونها جماعة مطالبة بالأحكام الإسلامية كافة وعلى وجه الخصوص حركة الرسول ﷺ فى مكة المكرمة ، بل التزامها حركة الرسول ﷺ يعنى التزامها بأحكام الإسلام .

---

(١) أخرجه البخارى ١ / ٥٤ بهذا اللفظ ،ومسلم ١/ ٧٤، وبنحوه رواه الترمذى ٤ / ٣٢٤، وأبو داود ٤/ ٢٨٦، والدارمى ٢ / ٣١١ ، وفى مسند أحمد ١ / ٣٥١ ، ٢ / ٢٩٧ ، والنسائى ٧ / ١٥٦ .

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك ٣ / ١٩٥ وصححه على شرط الشيخين وذكره الهيثمى فى المجمع ٩ / ٣٦٨ مرفوعا عن ابن عباس .

ولأن سيرة الرسول ﷺ فى مكة وما احتوته تعتبر من أحكام الإسلام تطبق فى وقتها المناسب على ضوء هديه ﷺ ،ووقتها المناسب كل وقت غابت فيه دولة الإسلام ، وعاد الإسلام غريبا ، ففى مثل هذا الوقت يتوجب أن تكون هناك جماعة تحمل الناس على الإسلام وتقيم دولته ، وعند تأسيس تلك الجماعة من سنة الله أن تمر بمراحل ، هذه المراحل واضحة فى سيرة الرسول ﷺ فى مكة ويتوجب على الدعاة المؤسسين لهذه الجماعة أن يقفوا عند كل مرحلة من مراحل الرسول ﷺ ويستنبطوا منها الأحكام ، ليأخذوا بها فى بناء جماعتهم ، فهى الأحكام المعصومة من الخطأ والنقص والهوى . وحينئذ فإن أخذهم بأحكام المرحلة الأولى مثلا وتأجيلهم أحكام باقى المراحل لا يعتبر تبعيضا لأحكام الإسلام ، بل اقتداء بالرسول فى سيرته ودعوته المباركة .

وخلاصة هذه النقطة أن الفرد المسلم أو الجماعة المسلمة موقعهما ومرحلتهما الحياتية هما اللذان يحددان ما يخصهما من الأحكام دون غيرها ، وأنه يتوجب عليهما الإيمان بباقى أحكام الإسلام وأن يستعد كل واحد منهما للعمل بتلك الأحكام .

أقسام أحكام الإسلام :

وبما أن الأحكام الإسلامية تنقسم باعتبار الماهية والكيفية إلى قسمين :

أحدهما : ماهية تلك الأحكام .

ثانيهما : كيفية تنفيذ تلك الأحكام .

فالفاتحة والتشهد فى الصلاة مثلا من الماهية وكيفية قراءتها ومكانها فى الصلاة من أحكام الكيفية .

وهذان القسمان ينقسمان باعتبار الفاعل إلى قسمين أيضًا :

أحدهما : أحكام خاصة بالمسلم كفرد فى الأمة الإسلامية .

ثانيهما : أحكام خاصة بالجماعة كجماعة من الأمة الإسلامية .

ونعنى بالجماعة من الأمة الإسلامية الفئة والطائفة التى تحمل الدعوة إلى إقامة جماعة المسلمين كلما جفاها الزمن ، أى الجماعة التى يتحقق هدفها المنشود عندما توجد جماعة المسلمين ـ حاكم يحكم الأمة بكتاب الله وسنة رسوله ـ عندما يوجد ذلك الحاكم فلا تعدد فى الإسلام لجماعات أو أحزاب . وعلى اعتبار عدم وجود جماعة المسلمين كما قررنا ذلك فى التمهيد [1] على رأس الأمة الإسلامية فى زمننا هذا وعلى اعتبار

(١) انظر : التمهيد من هذا الكتاب ص ١٥ ـ ٢٤ .

الطريق إلى إيجاد جماعة المسلمين ، أن توجد جماعة من المسلمين تسعى لهذا الأمر . فإن بحثنا سيلخص بعض الأحكام الخاصة بتلك الفئة ـ الجماعة من المسلمين ـ من حيث الكيفية ، من سيرة الرسول ﷺ وهى يسعى ليقيم جماعة المسلمين ، التى آل إليها تسيير أمور الأمة الإسلامية بعد ذلك ما شاء الله لها ذلك ، وهى الأحكام التى يجب أن تأخذ بها كل الجماعات التى تعمل اليوم لإعادة جماعة المسلمين إلى الأمة الإسلامية من حيث المرحلية فى الخطة ، مع ملاحظة التزام الجماعة مع أفرادها بأحكام الإسلام كلها ، والجماعة كجماعة، والأفراد كأفراد، كل بحسب موقعه من هذه الحياة. كما تقرر آنفا [1] .

وحصر الكتابة فى جانب الكيفية دون الماهية من الأحكام الإسلامية فى بناء الجماعة الإسلامية .

١ ـ لأن ماهية أحكام الإسلام فى هذا المجال معلومة من قبل كثير من دعاة الإسلام ، ولكن كيفية التطبيق مجهولة لأكثرهم ، فطلاب العلم مثلا يعلمون أن هناك دارًا فى سيرة الرسول ﷺ تسمى دار الأرقم بن أبى الأرقم ، ولكن قليلا منهم من يعلم مكانة هذه الدار فى بناء الجماعة ، وتربية أفرادها ، وأنها تمثل مرحلة من مراحل الدعوة .

٢ ـ ولأن جل أحكام الإسلام عموما ماهية وكيفا متعلق بوجود دولة إسلامية تقيمها ، وتنفذها ، فالكتابة فيها مع عدم وجود الذى سيقيمها نوع من العبث وضياع الوقت .

٣ ـ ولأن ماهية الأحكام فى هذه المرحلة تقررها قيادة الجماعة بحسب مستويات أفرادها ، ونوعية حاجتهم منها ، وبحسب ترتيبها من حيث الأهمية ، كأن يكون فى الجماعة أفراد درسوا فى بلاد ليس فى مناهجها مواد دينية ، فهؤلاء يحتاجون إلى منهج مكثف فى المواد الدينية ، وأفراد فى مؤسسات دينية بعيدة عن الفكر المعاصر ، فهم يحتاجون إلى منهج ثقافى مكثف فى هذه الناحية ليسد عندهم جانب النقص وهكذا .

٤ ـ ولأن الكيفية فى بناء الجماعة الإسلامية لم يكتب فيها إلا القليل [2] وفى الأيام المتأخرة ، خاصة فى تعاليم سيرة الرسول ﷺ فى بناء الجماعة لعدم الحاجة إليها

---

(١) انظر : ص ٩٥ من هذا الكتاب .

(٢) مثل الإمام حسن البنا ،والإمام أبو الأعلى المودودى ،ومثل الأستاذ سيد قطب فى كتابه فى ظلال القرآن ومعالم فى الطريق، والأستاذ سعيد حوى فى كتابه جند الله ثقافة وأخلاقا ، والمدخل إلى جماعة الإخوان المسلمين ، والأستاذ فتحى يكن فى أكثر مؤلفاته .

عند علمائنا القدامى لوجود جماعة المسلمين وإمامهم فى كل العصور الماضية ، فلم يكتبوا عنها كالعلوم الأخرى ، ولم يستنبطوا منها فروعا نعتمد نحن عليها ، كما فتحوا لنا أبوابا كثيرة وسبلا عديدة من خلال استنباطهم من أحكام الإسلام الأخرى غير أحكام بناء الرسول ﷺ للجماعة الأولى .

obeikandl.com

الفصل الثانى

خطوة الرسول الأولى فى دعوته

(بناء الجماعة)

المبحث الأول

إدراك الرسل واتباعهم لهذه الخطوة

إدراكه ﷺ لأهمية هذه الخطوة :

١ ـ أدرك الرسول ﷺ من الساعات الأولى من الوحى الربانى إليه أن ما وكل إليه القيام به أمر لا يمكن لبشر أن يحمله بمفرده وأنه لابد لهذا الأمر من جماعة قوية تطبقه على نفسها ثم تحمله إلى العالمين .

قال تعالى : ﴿ **إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝٥** ﴾ [المزمل] . قال صاحب الظلال عند تفسير هذه الآية : أى (ثقيلا فى تبعاته ومستلزماته لا فى لفظه أو معناه بل هو ميسر للذكر) (١) فكانت الخطوة الأولى فى حياته ﷺ هى إقامة وإيجاد تلك الجماعة .

٢ ـ أدرك ﷺ هذا المعنى من كتاب ربه المنظور والمسطور .

أدرك من الكتاب المنظور أن كل شىء فى الكون يتعاون بعضه مع بعض ، كتلة واحدة ، ليؤدى مهمة واحدة ، هى تسهيل عيش هذا الإنسان على هذه الأرض بعبارة واحدة ، هى : ﴿ **أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝١١** ﴾ [فصلت] حتى عبر بعضهم عن هذا المعنى بقوله : (حركة واحدة من السرة إلى المجرة) (٢) أى أن كل شموس المجرة وكواكبها تتحرك ، لتوصل الطعام إلى معدة ذلك الإنسان .

٣ ـ وأدرك ﷺ ذلك من خلال سير من سبقه من الأنبياء والمرسلين فى التنزيل الحكيم ، أدرك أن النبى الذى استجاب له قومه فكونوا حوله جماعة تحمل دعوته بقيت دعوته وحكمت صحفه ، وأن النبى الذى لم يستجب له قومه ولم يكونوا حوله جماعة تحمل دعوته طويت صحفه وغطى الزمان على دعوته .

---

(١) فى ظلال القرآن ٢٩ / ١٤٧ .

(٢) من محاضرة للأستاذ عبد المجيد الزندانى ألقيت بدار الحديث المدنية .

٤ ـ عبر ﷺ عن هذا المعنى بقوله فيما رواه مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﷺ : « عرضت علىَّ الأمم ، فرأيت النبى ومعه الرهط ، والنبى ومعه الرجل ، والرجلان ، والنبى وليس معه أحد،إذ رفع لى سواد عظيم فظننت أنهم أمتى، فقيل لى :هذا موسى وقومه ، ولكن انظر : إلى الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم . فقيل لى : انظر إلى الأفق الآخر ، فإذا سواد عظيم ، فقيل لى : هذه أمتك » (١) .

فالنبى الذى استجابت له أمته وكونت حوله السواد ، ترعرعت وبقيت دعوته على هذه الأرض ما شاء الله لها أن تبقى ، ثم بعث ذلك السواد يوم القيامة يزف نبيه على رؤوس الأشهاد فى صورة بديعة معبرة ، والنبى الذى لم تستجب له أمته ، ولم تكن حوله جماعة لتحمل معه دعوته هو ذلك النبى الذى غادر هذه الأرض ولم يؤمن به أحد، ثم بعث وليس معه أحد ، ولكنه أمة فى ذاته .

٥ ـ ولنأخذ على هذا المعنى مثالا من قصص الأنبياء من كتاب الله تعالى : فذلك موسى ، وذاك عيسى ، وهذا محمد ﷺ . موسى استجاب له قومه ، وكونوا حوله الجماعة فبقيت توراته حتى يومنا هذا على ما أصابها من تحريف . وعيسى عندما استجاب له الحواريون وكونوا حوله جماعة تحمل دعوته بقيت النصرانية تحمل اسمه إلى يومنا هذا ، على ما تخللها من تحريف .

ومحمد ﷺ عندما تجمعت حوله أمة من الناس تؤمن بدعوته ، وتحملها إلى العالمين بقى الإسلام ضاربا فى أعماق الأرض ممتدا على وجهها شرقا وغربا ، وسيبقى أبد الدهر مادامت هناك طائفة تحمله منصورة به لا يضرها من خذلها ، أو عرقل سيرها .

وهناك أنبياء ورسل لم تستجب لدعوتهم أقوامهم ليكوِّنوا حولهم الجماعات التى تحمل الدعوات والتى بها تنتشر وبدونها تخبو وتندثر .

فغادر أولئك الأنبياء هذه الأرض ومعهم صحفهم لم تنشر ، ومحقت أممهم على الكفر ولم نسمع لواحدة منها ركزا .

هل لأن الله تعالى لم يرد إرادة شرعية لأمم أولئك الأنبياء الهداية والرشاد ؟ كلا وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ،بل الله لا يحب الكافرين ، ولا يرضى لعباده الكفر .

---

(١) أخرجه مسلم بهذا اللفظ ١/ ١٩٩، وأخرجه البخارى بنحوه فى مواضع عدة منها ٧/ ١٦٣ ط إحياء التراث، وفى الفتح ١٠ / ١٥٥ ، وأخرجه الترمذى ٤ / ٦٣١ ، وقال : حديث حسن صحيح . وهو فى مسند أحمد بتحقيق شاكر ٤ / ١٤٧ ـ ١٤٩ .

أو لأن واحدا من أولئك الرهط المرسلين قصر فى اتخاذ وسيلة من وسائل إنجاح الدعوات ؟ حاشا وكلا بل سلكوا كل وسيلة لإقناع أممهم .

ولكن عدم استجابة تلك الأمم لتكوين الجماعة التى تحمل الدعوة كان السبب الوحيد فى عدم بقاء صحف أولئك الأنبياء وانتشارها .

لقد سلك الأنبياء كل وسيلة فى إمكانهم ، وبذلوا كل جهد هو فى مقدورهم ، لتؤمن تلك الأمم وتهتدى ، ولكنها أبت وأعرضت ، فهذا إبراهيم عليه السلام سلك مع قومه فى بابل [1] كل وسيلة ليؤمنوا، فأعرضوا عنه وتولوا مدبرين ، بدأهم بالتى هى أحسن ، وبالحجة الواضحة، والبيان الساطع، قال تعالى: ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤)** ﴾ [الشعراء] .

وقال تعالى : ﴿ **وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠)** ﴾ [الصافات] .

ثم واجههم بالتهديد والوعيد ، قال تعالى : ﴿ **وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧)** ﴾ [الانبياء] . ثم نازلهم باليد والسنان ، قال تعالى : ﴿ **فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤)** ﴾ [الصافات]

فما كان منهم إلا أن نكسوا على رؤوسهم بعد أن أقام إبراهيم عليه السلام الحجة عليهم، وأضلهم الله تعالى على علم ، قال تعالى : ﴿ **فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤)** ﴾ [الانبياء] فاعترفوا بظلمهم فسحقا للقوم الكافرين .

وعندها استراحت نفس إبراهيم عليه السلام إلى ما بذل معهم ، وأدرك أنه قد أدى واجبه نحوهم ، وأنهم هم الذين قعدوا عن نصرته ودعوته ، بأن يكونوا عصبة تؤمن به وتحمل معه الدعوة ، وتبلغها للناس من بعده فتركهم على كفرهم وهو يقول : ﴿ **إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩)** ﴾ [الصافات] .

---

(١) انظر البداية والنهاية : فى تفصيل قصة سيدنا إبراهيم فى شعب بابل ١ / ١٤٣ ـ ١٤٧ .

إبراهيم عليه السلام يدرك تلك الحقيقة :

وإبراهيم عليه السلام فى طريقه إلى ربه أعلن عن تلك الحقيقة التى لا بد منها لنصر الدعوات ،وهى إما جماعة تحمل الدعوة فتنتصر تلك الدعوة ، أو لا جماعة فلا نصر ، وهى الحقيقة التى أدركها سيدنا محمد ﷺ لأول وهلة فى دعوته ، والتى يجب أن يدركها كل داعية إلى هذا الإسلام .

أدركها إبراهيم عليه السلام فطلب من الرب سبحانه أن يهب لـه مـن الصالحين ، جماعـة تلتف حوله تحمل دعوته وتطبقها على نفسها،ثم تنشرها فى العالمين من بعده،قال تعالى: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) ﴾ [الصافات] .

هـذه هـى الحقيقـة التى انتهى إليهـا سيدنا إبراهيم بعـد مـا سلك كـل الطرق لتبقى دعوته، وهى الحقيقة التى أدركها سيدنا لوط فى الليلة التى داهم قومه ضيفه ، أحس بقيمة الجماعة وأنها خطوة لابد منها للدفاع عن الدعوة والداعية ، قال تعالى : ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) ﴾ [هود] .

قال القرطبى عند هذه الآية : (مراد لوط بالركن : العشيرة والمنعة) (١) .

وهى الحقيقة التى أدرك أهميتها قوم شعيب وحالت بين شعيب والمعتدين عليه بالرجم ، قال تعالى : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) ﴾ [هود] .

وهى الحقيقة التى جعلها رسول الله ﷺ خطوته الأولى فى دعوته . إنها حقيقة يجب أن يدركها الدعاة فى كل زمان ومكان ، وأن يعملوا بها . هذه الحقيقة هى: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ وبدونها لا يمكن للدعوة أن تبقى أو تنتشر .

الرسول ﷺ يبين أهمية هذه الحقيقة :

ولقد عبر رسول الله عن أهمية هذه الحقيقة فى نجاح الدعوة ، وبين أنها هى التى تقرر مصير الدعوة من حيث البقاء وعدمه ، وذلك فى أثناء مناجاته لربه سبحانه وتعالى فى يوم بدر .

كما روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله (٢) : لما كان يوم بدر . . . فاستقبل

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٩ / ٧٨ .

(٢) رواه مسلم ٣/ ١٣٨٤ من حديث طويل،وهو فى الترمذى ٥/ ٢٦٩ ، ومسند أحمد ١ / ٣٠ ، ٣٢، ١١٧.

النبى ﷺ ، ثم مد يده فجعل يهتف بربه : « اللهم إن تهلك هذه العصابة [١] من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض . . . » الحديث .

هكذا : « إن تهلك تلك العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض » ؛ لأن محمدا ﷺ هو آخر الرهط الكرام من الأنبياء والمرسلين ؛ ولأنه لا يستطيع أن يربى جماعة جديدة إن هلكت عصابته التى مكث يزكيها ويربيها ويقويها خمس عشرة سنة كاملة ،بين مكة والمدينة،فعلى ذلك لا عبادة لله فى الأرض . إنها حقيقة يجب أن يقف الدعاة عندها كثيرا ، هذه الحقيقة هى أن الدعوة لابد لها من جماعة تحملها ، وأن على الدعاة أن يضحوا بكل شىء فى سبيل إيجادها ، وأن ينسوا كل شىء فى سبيل المحافظة عليها وعلى وحدتها .

إجماع مفكرى العصر الحديث عليها :

وعلى هذه الحقيقة اتفق أصحاب الفكر الإسلامى المعاصر .

يقول الأستاذ المودودى : (ومن سنن الله فى الأرض أن يحمل هذه الدعوة رجال يحافظون عليها ويسوسون أمرها) [٢] .

ويقول الأستاذ حسن البنا : (يجب أن تحمل هذه الدعوة جماعة تؤمن بها وتجاهد فى سبيلها) [٣] .

ويقول الأستاذ سيد قطب : (فكيف تبدأ عملية البعث الإسلامى إنه لا بد من طليعة تعزم هذه العزمة) [٤] .

ويقول الأستاذ سعيد حوى : (هذا هو الحل الوحيد الآن أن تقوم جماعة) [٥] .

ويقول الأستاذ فتحى يكن :(فالرسول ﷺ لم يعتمد أسلوب العمل الفردى قط ، وإنما حَضَّ من أول يوم على إقامة جماعة) [٦] .

ويقول الأستاذ محمد أحمد الراشد : (إن نقطة البدء الآن هى نقطة البدء من أول عهد الرسول ﷺ ، أن يوجد فى بقعة من الأرض أناس يدينون دين الحق) [٧].

فإذا وضحت هذه الحقيقة من سيرة الرسول ﷺ ، وانتصب ذلك الواجب أمام

---

(١) قال عبد الباقى على مسلم : العصابة : الجماعة .

(٢) تذكرة دعاة الإسلام ص ١٩ .

(٣) المؤتمر الخامس ص ١٧ .

(٤) معالم فى الطريق ص ٩ .

(٥) جند الله ثقافة ص ٣١ .

(٦) ماذا يعنى انتمائى للإسلام ص ١٠٣ .

(٧) المنطلق ص ١٦٥ .

الدعاة إلى الله تعالى ، فعلى كل مسلم أحس بواجب الدعوة الإسلامية عليه ، وأراد أن يتحرك لهذه الدعوة ، يجب أن تكون الخطوة الأولى فى حياته هى خطوة الرسول ﷺ الأولى ، ألا وهى البحث عن الجماعة ،أو إيجادها لتعينه على ذلك الواجب ، ذى الحمل الثقيل الواسع التبعات،قال تعالى: ﴿ **إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً** ۝٥﴾ [المزمل] .

obeikandl.com

المبحث الثانى

دعاة الإسلام وخطوة الرسول الأولى

أقسام الدعاة بالنسبة لهذه الخطوة :

بعد أن اتضح أن خطوة الرسول ﷺ الأولى فى دعوته بمكة المكرمة كانت هى إيجاد الجماعة التى تحمل مهام الدعوة وتنشر تعاليمها من بعده ، واستبان وجوب التزام الدعاة الإسلاميين بهذه الخطوة ، والمحافظة عليها ، يحسن أن أبين هنا أن الدعاة الإسلاميين اليوم ، وفى غياب جماعة المسلمين بالنسبة لهذه الخطوة النبوية قسمان :

١ ـ دعاة من أرض توجد بها جماعة أو جماعات إسلامية ، فهذا القسم له حكمه الخاص به ، بالنسبة لخطوة الرسول الأولى التى هى إيجاد الجماعة .

٢ ـ دعاة من أرض لا توجد بها جماعة تدعو إلى الإسلام أصلا ، وهذا القسم له حكم مستقل عن الأول أيضًا .

أولا : دعاة من أرض بها جماعة أو جماعات إسلامية :

١ ـ واجبهم إذا وجد فى البلد جماعة واحدة :

إن الدعاة الذين توجد فى بلادهم جماعة أو جماعات تدعو إلى الإسلام لا يحق لهم بحال من الأحوال تأسيس جماعة جديدة فى تلك البلاد ؛ لأن ذلك يعنى أن البلاد ستتحول إلى جماعات بعدد الدعاة من أهلها ، ثم تدخل بعد ذلك فى صراع واختلاف وشقاق لا حصر له ، وهذه النتائج من الصراعات والاختلافات تصطدم مع قواعد الاعتصام ونبذ الشقاق والاختلاف بين المسلمين ،والمحافظة على أخوة المؤمنين ووحدتهم فى الدين الإسلامى،والذى أسست الجماعة فى الأصل لحمل دعوته ونشرها بين الناس، ولكن الذى يجب عليهم هو الانخراط فى الجماعة الموجودة فى البلاد والتى سبقوا إلى تأسيسها ، ثم محاولة إصلاح ما يلاحظونه من نقص وهم داخل الجماعة ، وكل موقف غير الانضمام إلى تلك الجماعة فهو موقف سلبى يجب أن يترفع عنه الدعاة إلى الله تعالى ، هذا إذا كانت جماعة واحدة ، أما إذا كانت فى البلاد عدد من الجماعات فإن الحكم يختلف .

٢ ـ واجبهم إذا وجد فى البلد عدد من الجماعات :

أما إذا كان فى البلاد عدد من الجماعات ، الداعية إلى الإسلام فموقف الدعاة إلى الله هو أن يقيسوا مبادئ وأفكار تلك الجماعات الموجودة بميزان الإسلام الحنيف ؛ لينظر أى تلك الجماعات أقرب إلى الإسلام فى مبادئها ، وأفكارها ، فتكون هى الجماعة التى يجب أن ينخرط الدعاة إلى الإسلام فى صفها ، ثم يحاولوا ضم باقى الجماعات إليها ، إن تيسر ذلك ؛ لأن فى ضمها قطعا لدابر الخلافات بينها ، وتوحيدا لجهة الدعوة أمام أعدائها .

وقبل الدخول فى معرفة مبادئ وأفكار تلك الجماعات ـ من حيث القرب من الإسلام أو البعد عنه ـ على الدعاة ملاحظة ما يلى :

أ ـ ملاحظة ماهية الأمور التى تمثل النقص فى تلك الجماعات ، هل هى من أصول الدين أو من فروعه ؟ فإن كانت من أصول الدين فلا وفاق مع الجماعة التى فيها ذلك النقص ، والواجب إرشاد تلك الجماعة إلى نقصها دون الانخراط فى صف تلك الجماعة .

وأما إذا كان النقص فى فروع الدين فيجب ألا يحول ذلك النقص بين الدعاة وبين الانخراط فى صف تلك الجماعة ، بل الواجب الانخراط فى الجماعة ومحاولة إصلاح ذلك النقص الفرعى من داخل الجماعة .

ب ـ ويلاحظ أنه إذا اجتمعت جماعتان فى النقص فى الفروع تقدم الجماعة الأقل نقصا على الأكثر نقصا .

جـ ـ ملاحظة أن الجماعات تقوم فى مجموعها على أفراد من جنس البشر ، تنطبق عليهم قاعدة الخطأ البشرى، والضعف البشرى، وعليه فإن كان النقص فى تلك الجماعات نتيجة لاجتهاد بشرى ، فيجب ألا يحول ذلك النقص بين تلك الجماعة التى فيها ذلك النقص ، وواجب أولئك الدعاة الانضمام إليها أيضًا .

د ـ وخلاصة هذه النقطة أن البلاد الإسلامية منها ما يوجد به جماعة أو جماعات تدعو إلى الإسلام ، فعلى الداعية أن ينخرط فى أقربها إلى الإسلام .

مع مراعاة حقيقة هى أن كل البلاد الإسلامية لا تخلو من خير وهذا الخير فيه من الدخن ما فيه ، وعلى الداعية الإسلامى الماهر محاولة تنقية ذلك الدخن ، وهذا الدخن لا يخلو من قصور بشرى ؛ لأن الدين الإسلامى منزَّه عن الدخن ، وإنما جاء الدخن

ممن يحمل ذلك الدين من البشر ، وهؤلاء البشر فيهم من القصور والضعف البشرى الكثير ، وعلى الداعية الذكى أن يتقرب إلى هؤلاء البشر بالحكمة ليصل إلى قلوبهم ، ثم يبدأ التغيير بعد ذلك . هذا مع ملاحظة ما قرر من قواعد تقدمت الإشارة إليها .

ثانيا : دعاة من أرض لا توجد بها جماعة إسلامية :

فهؤلاء واجبهم الأول تأسيس الجماعة وسنكتب لهم معالم من سيرة الرسول ﷺ عندما بعث فى مكة وأسس فيها جماعة حملت هذا الدين من بعده إلى العالمين ، وعلى هؤلاء الدعاة أن يدركوا أن كل خطوة فى حياة دعوتهم لا تؤدى إلى تأسيس أو تقوية بناء الجماعة فهى سلبية ، وأنهم يسيرون على غير نهج الرسول ﷺ فى دعوته ، وهو النهج الذى نزهه الله تعالى عن القصور وعصمه من الخطأ،وأن الشارع ألزمهم وأوجب عليهم السير على نهجه ﷺ ، ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً** (٢١) ﴾ [الأحزاب] .

الفصل الثالث

معالم من سيرة الرسول فى بناء الجماعة

المبحث الأول

فى المعلم الأول من سيرة الرسول وهو نشره لمبادئ الدعوة

الطرق التى سلكها فى النشر :

والمعلم الأول فى حياته ﷺ فى بناء الجماعة نشره لمبادئ الدعوة وتعاليمها ، والطريق إلى نشر المبادئ والتعاليم الإسلامية هى إخبار الناس بهذه الأفكار والمبادئ شيئا فشيئًا ، وبحسب أهمية تلك المبادئ والأفكار فى الدعوة ، وبحسب اتساع مفاهيم أولئك الناس وقدرة عقولهم على الإدراك والاستيعاب .

وكان شعار هذا المعلم قوله تعالى : ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ الآية [النحل : ١٢٥] .

ولقد سلك رسول الله ﷺ فى هذه المرحلة ، التى سميناها إخبار الناس واطلاعهم على مبادئ وأفكار الدعوة الجديدة ، شيئا فشيئا ، بحسب أهميتها فى الدعوة ، وبحسب قدرة عقول أولئك الناس على الاستيعاب والتطبيق لهذه المبادئ والأفكار طريقين :

الطريق الأول : الاتصال الفردى :

وهو الذى يسميه مؤرخو السيرة الشريفة المرحلة السرية فى الدعوة ،وخلاصة هذه الطريق أنه كان عليه الصلاة والسلام يأتى إلى من يثق به من أهله وأصدقائه فيطلعه على خبره على انفراد ، ثم يطلب منه الموافقة عليه وأن يكتم ذلك الاتصال مطلقا ، سواء وافق عليه أو لم يوافق ، حرصا منه عليه الصلاة والسلام ألا تضرب الدعوة فى مهدها والشواهد على هذا الطريق كثيرة منها :

١ ـ عرضه ﷺ خبره على السيدة خديجة زوجه ﷺ كما جاء فى صحيح البخارى وغيره عن عائشة رضي الله عنها من حديث طويل : « . . . فقال لخديجة وأخبرها الخبر . . . »

الحديث [1] . وقال شارح بهجة المحافل :(وممن أسلم أولا خديجة ،أى لما مر أولا فى ابتداء الوحى من رجوعه ﷺ إليها وقوله لها زملونى زملونى) [2] ا. هـ .

وقال ابن هشام تحت عنوان : (إسلام خديجة رضي الله عنها) : (وآمنت به خديجة بنت خويلد وصدقت بما جاءه من الله وآزرته على أمره ،وكانت أول من آمن بالله ورسوله وصدق بما جاء منه ، فخفف الله بذلك عن نبيه) [3] .

٢ ـ ومن ذلك عرضه ﷺ خبره على ابن عمه على بن أبى طالب رضي الله عنه كما جاء فى سيرة ابن إسحاق :

قال : (ثم إن على بن أبى طالب جاء بعد ذلك بيومين فوجدهما يصليان ، فقال على : ما هذا يا محمد ؟ فقال النبى ﷺ : « دين الله الذى اصطفى لنفسه وبعث به رسله ،فأدعوك إلى الله وحده ، وإلى عبادته . . . » فقال له على:هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم،فلست بقاض أمرًا حتى أحدث أبا طالب . . . فقال له الرسول ﷺ:« يا على، إذا لم تسلم فاكتم ») [4] .

وعن ابن هشام قال : قال ابن إسحاق : (ثم كان أول ذكر من الناس آمن برسول الله ﷺ ، وصلى معه وصدق بما جاءه من الله تعالى : على بن أبى طالب رضي الله عنه وهو يومئذ ابن عشر سنين) [5] .

وقال ابن كثير : (وكان على يكتم إيمانه) [6] . وقال صاحب عيون الأثر : (إن رسول الله ﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعب مكة وخرج معه على بن أبى طالب مستخفيا من أبى طالب وجميع أعمامه وسائر قومه فيصليان فيها) [7] .

وتشتد حاجة الدعوة إلى سلوك هذه الطريق فى مرحلتين :

الأولى : فى ابتداء الدعوة وتأسيس الجماعة ، والثانية : عند منع السلطة الحاكمة لرجال الدعوة من مزاولة نشاط الدعوة علنا ومن دروس عامة .

---

(١) أخرجه البخارى فى مواضع عدة منها ١/ ٥ ، ومسلم ١/١٣٩، وأحمد ٣ / ٣٩ ، ٦ / ٢٢٣ ، وانظر أيضا سيرة ابن هشام ١ / ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

(٢) بهجة المحافل ١ / ٧٣ . (٣) سيرة ابن هشام ١ / ٢٤٠ .

(٤) كتاب السير والمغازى لمحمد بن إسحاق بتحقيق سهيل زكار ص١٣٧ .

(٥) سيرة ابن هشام ١ / ٢٤٥ . (٦) البداية ٧ / ٢٢٤ .

(٧) عيون الأثر لابن سيد الناس ١ / ٩٣ .

الطريق الثانى : الاتصال العام :

وهو الذى يسميه مؤرخو السيرة المطهرة مرحلة الجهر بالدعوة وخلاصة هذه الطريق: أن تستعمل الدعوة كل وسائل الإعلام فى الوقت الحاضر ، من إذاعة وصحافة وتلفاز وكتب وخطب ومحاضرات وندوات ، لنشر أفكار الدعوة ومبادئها فى الناس على مختلف طبقاتهم .

وقد سلك الرسول ﷺ فى هذه الطريق وسائل عدة لإيصال دعوته إلى الناس منها:

١ ـ جمعه ﷺ الناس على طعام فى بيته ثم إخبارهم بما عنده من مبادئ الدعوة :

كما جاء فى مسند الإمام أحمد عن على بن أبى طالب قال:(جمع رسول الله ﷺ أو دعا رسول الله ﷺ بنى عبد المطلب فيهم رهط كلهم يأكل الجزعة ويشرب الفرقة ، قال : فصنع لهم مدا من طعام فأكلوا حتى شبعوا ، وقال :وبقى الطعام كما هو كأنه لم يمس ثم دعا بغمر [١] فشربوا حتى رووا وبقى الشراب كأنه لم يمس أو لم يشرب،فقال : « يا بنى عبد المطلب ، إنى بعثت لكم خاصة وإلى الناس بعامة ، وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم ،فأيكم يبايعنى على أن يكون أخى وصاحبى ؟ » قال : فلم يقم إليه أحد وكنت أصغر القوم . قال : فقال : « اجلس » . قال : ثلاث مرات كل ذلك أقوم إليه فيقول لى : « اجلس » حتى كان فى الثالثة ضرب بيده على يدى) [٢] .

٢ ـ جمعه ﷺ الناس فى أماكن مختلفة ثم تبليغهم رسالة ربه :

كما روى البخارى وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ** (٢١٤) ﴾ [الشعراء] ورهطك منهم المخلصون خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف :« يا صباحاه » . فقالوا : من هذا ؟ فاجتمعوا إليه . فقال : « أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقى ؟ » . قالوا :ما جربنا عليك كذبا . قال:« فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . . » الحديث [٣] .

٣ ـ ذهابه إلى أماكن تجمع الناس وتبليغهم دعوة الله تعالى :

أخرج أحمد عن ربيعة الديلى وكان جاهليا فأسلم قال : رأيت رسول الله ﷺ فى

---

(١) قال فى الوسيط : الغمر : القدح الذى يشرب به الناس ٢ / ٦٦٨ .

(٢) مسند أحمد تحقيق شاكر (٢ / ٣٥٢) وقال شاكر : إسناده صحيح،والحديث نقله ابن كثير (٦ / ٢٤٦، ٢٤٧) وهو أيضا فى الزوائد (٨ / ٣٠٢) وقال : رواه أحمد ورجاله ثقات . وهو الثابت فى الأصول ومجمع الزوائد . ا . هـ . وانظر : البداية ٣ / ٣٩ .

(٣) أخرجه البخارى ٦ / ٢٢١ ، وهو فى الفتح ٨ / ٧٣٧ ، مسلم ١ / ١٩٤ ، وأحمد ١ / ٢٨١ .

الجاهلية فى سوق ذى المجاز وهو يقول: « يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » (١).
وقال ابن إسحاق : (فكان رسول الله ﷺ يعرض نفسه فى المواسم إذا كانت على قبائل العرب يدعوهم إلى الله ويخبرهم أنه نبى مرسل) (٢) .

وقال صاحب بهجة المحافل : (اجتهد رسول الله ﷺ فى عرض نفسه على القبائل فى مجامعهم فى المواسم منى وعرفات ومجنة وذى المجاز وغيرهم) (٣) .

٤ ـ ارتحاله إلى البلدان لتبليغ الدعوة :

كما جاء عن ابن إسحاق قوله : (لما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف . . .) الحديث (٤) .

وكما جاء بنحو عن عائشة رضي الله عنها قالت : « يا رسول الله ، هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد . . . » الحديث (٥).

٥ ـ كتاباته ﷺ إلى رؤساء القبائل وملوك الأقاليم يدعوهم إلى الله تعالى :

قال صاحب بهجة المحافل : (جهز رسول ﷺ كتبه إلى ملوك الأقاليم الجبابرة يرغبهم ويرهبهم ، فبعث دحية بن خليفة الكلبى إلى قيصر ، وعبد الله بن حذافة السهمى إلى كسرى ، وعمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى ، وحاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس ، وشجاع بن وهب إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى ، وصلت بن عمرو العامرى إلى هوذة بن على الحنفى، ومما اشتهر من ذلك واتفق عليه الصحيحان كتابه إلى هرقل وهو قيصر) (٦) ، كما جاء ذلك فى صحيح البخارى عن ابن عباس رضي الله عنهما من حديث أبى سفيان مع هرقل وفيه نص رسالة رسول الله ﷺ وهى : « بسم الله الرحمن الرحيم . فإنى أدعوك بدعاية الإسلام . . . » الحديث (٧) .

الجانب التنظيمى فى نشر الدعوة :

بعد أن وضحت الطريقين اللتين سلكهما الرسول ﷺ فى نشر دعوته ، وهما الاتصال الفردى، والاتصال العام ـ أو الجماعى، ووضحت الوسائل إلى هذين الطريقين،

---

(١) أخرجه أحمد ٣ / ٤٩٢، وانظر :أيضا البداية ٣/ ٤١ وابن هشام ١/ ٤٢٢ ـ ٤٢٩ ، وعيون الأثر ١/ ١٦٢ .
(٢) سيرة ابن هشام ١ / ٤٢٢ .
(٣) بهجة المحافل ١/ ١٢٧ ، وانظر أيضا عيون الأثر ١/ ١٥٢ ،والمواهب اللدنية ١ / ٣٠٩ ، والبداية ٣/ ١٣٨ .
(٤) السيرة لابن هشام ١ / ٤١٩ ، والمواهب اللدنية ١ / ٣٠٥ ، والبداية ٣ / ١٣٥ .
(٥) أخرجه البخارى ٤/ ١٣٩ ، ومسلم ٣ / ١٤٢٠ ، وانظر أيضًا لابن إسحاق فى السيرة ٤١٩ ، وبهجة المحافل ١/ ١٢٣ وقال صاحب بهجة المحافل : (وقد تعدد الحديث فى صحيح مسلم من رواية عائشة عنه ﷺ أن هذا الموقف بالطائف أشد ما لقى فى ذلك) ا . هـ .
(٦) بهجة المحافل ١ / ٣٣٦ .
(٧) أخرجه البخارى فى مواضع عدة منها ١٠ / ١٦ وهو فى الفتح ١ / ٣١ ـ ٣٣ ،وفى مسلم ٣ / ١٣٩٣ ـ ١٣٩٧ ، وأحمد ١ / ٢٦٣ .

أبين الآن الجانب التنظيمى، أو خطة العمل لهذا النشر، وهى تتلخص فيما يلى :

١ ـ أن يحدد الداعية إلى الله ماهية المبادئ التى سيبدأ بنشرها بحسب أهميتها فى الدعوة ، فالرسول ﷺ عندما أوحى الله تعالى إليه أنه نبى الله تعالى ورسوله . حدد الله تعالى المبدأ الأول والأهم لدعوته ، وهو المبدأ الأول لجميع الرهط الكريم من الأنبياء والمرسلين ، هذا المبدأ هو : ﴿ **أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** ﴾ ، ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾ [النحل : ٣٦] (١) ، ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)** ﴾ [الأنبياء] .

٢ ـ يتفق مع من أجابه ووافقه على المبدأ الذى حدده على أن يأتى كل واحد منهما بواحد موافق على دعوتهما التى اتفقا عليها فى فترة زمنية معينة ، وعلى هذا سيصبح الاثنان أربعة بعد تلك الفترة من الزمن ، وهكذا سيصبح الأربعة ثمانية والثمانية ستة عشر . . . وسنوضح هذه النظرية التنظيمية بالنموذج التالى:

أ ـ ليكن المبدأ تعليم الناس فاتحة الكتاب مثلا ، أو التركيز على أهمية العمل الجماعى ، أو الحث على الصلاة .

ب ـ الزمن الذى سيستغرقه تنفيذ ذلك المبدأ ساعة واحدة من كل يوم لمدة شهر كامل.

ولنبدأ بداعية واحد قرر أن يقوم بذلك العمل ويأتى بآخر بعد شهر :

الزمن المتفق عليه	العدد المتكرر	الموضوع المدروس
الشهر الأول من السنة الأولى	٢	كيف تصلى
الشهر الثانى من السنة الأولى	٤	
الشهر الثالث من السنة الأولى	٨	
الشهر الرابع من السنة الأولى	١٦	
الشهر الخامس من السنة الأولى	٣٢	
الشهر السادس من السنة الأولى	٦٤	
الشهر السابع من السنة الأولى	١٢٨	
الشهر الثامن من السنة الأولى	٢٥٦	
الشهر التاسع من السنة الأولى	٥١٢	

(١) النحل آية : ٣٦ . وانظر آيات الأعراف : ٥٩ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥ . وهود : ٥٠ ، ٦١ ، ٨٤.

الزمن المتفق عليه	العدد المتكرر	الموضوع المدروس
الشهر العاشر من السنة الأولى	١٠٢٤	كيف تصلى
الشهر الحادى عشر من السنة الأولى	٢٠٤٨	
الشهر الثانى عشر من السنة الأولى	٤٠٩٦	
الشهر الأول من السنة الثانية	٨١٩٢	
الشهر الثانى من السنة الثانية	١٦٣٩٤	
الشهر الثالث من السنة الثانية	٣٦٧٦٨	
الشهر الرابع من السنة الثانية	٧٧٥٣٦	
الشهر الخامس من السنة الثانية	١٥٥٠٧٢	
الشهر السادس من السنة الثانية	٣١٠١٤٤	
الشهر السابع من السنة الثانية	٦٢٠٢٨٨	
الشهر الثامن من السنة الثانية	١٢٤٠٥٧٦	
الشهر التاسع من السنة الثانية	٢٤٨١١٥٢	
الشهر العاشر من السنة الثانية	٤٩٦٢٣٠٤	
الشهر الحادى عشر من السنة الثانية	٩٩٢٤٦٠٨	
الشهر الثانى عشر من السنة الثانية	٢١٦، ٨٤٩، ١٩	

ملاحظة : فى حالة الرغبة فى زيادة المواضيع المدروسة يزاد الزمن بحيث يصبح شهرين ، شهر لتعليم كيف يصلى المسلم مثلا ، والشهر الثانى كيف يقرأ القرآن . . . وإلى آخره .

من هذا الجدول التوضيحى تدرك ما يلى :

أ ـ أن جماعة من الناس تعدادها (٢٦١ ، ٨٤٩ ، ١٩) قد تشربت مبدأ معينا أو عملا معينا فى زمن قصير قدره سنتان .

ب ـ وتلمس أن النظرية أكثر واقعية من حيث الإمكان فالداعية الذى لا يعطى ساعة واحدة من يومه لدعوته ليس داعية بحق ، وداعية لا يستطيع أن يخرج تلميذا

obeikandi.com

حافظا لفاتحة الكتاب بعد ثلاثين ساعة من الزمن ـ هذا الزمن طوله شهر كامل ـ ليس داعية بحق .

جـ ـ ثم تدرك أن جماعة هذا عددها ستفعل أشياء كثيرة وكثيرة جدا .

د ـ وأن زمنا تكونت فيه هذه الجماعة الكثيرة العدد لزمن قصير وقصير جدا بمقياس بناء الجماعات ، ولكن فى الحقيقة أن همم الرجال إذا نظمت تفعل أكثر من ذلك .

فإذا أدركت ذلك كله فاعلم أن هذا العدد لهذه الجماعة فى الشهر الأول من السنة الثالثة سيصبح ٤٣٢، ٦٨٩ ، ٣٩ ، وفى الشهر الثانى من السنة الثالثة سيصبح ٤٣٢ ، ٣٩٦ ، ٧٩ ، وهكذا تتضاعف الأرقام تضاعفا هائلا كلما تقدم الزمن.

فاستعن بالله وتوكل عليه .

obeikandl.com

المبحث الثانى

فى المعلم الثانى من سيرة الرسول
وهو التكوين على الدعوة

مفهوم معلم التكوين :

المعلم الثانى من سيرة الرسول ﷺ فى بناء جماعته التكوين على الدعوة ، وهو الذى سينتج عن المعلم الأول من سيرة الرسول ﷺ سواء فى الاتصال الفردى ، أو الاتصال الجماعى ، وتفصيل ذلك أنك تلاحظ أن ناسا ممن نشرت فيهم تعاليم الدعوة وافقوا عليها فآمنوا بالدعوة واستجابوا لها ، وناسا منهم لم يوافقوا على الدعوة ورفضوها .

وأقرب مثال على ذلك عرض الرسول ﷺ دعوته على ابن عمه على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فوافق عليها واستجاب [1] لها ، وعرضه ﷺ دعوته على عمه أبى طالب فلم يوافق عليها ورفضها [2] .

هذا فى مرحلة الاتصال الفردى (أى مرحلة الدعوة السرية) .

ومن المرحلة الجهرية وقوفه ﷺ على الصفا ومناداته لبطون قريش وعرضه ﷺ دعوته عليهم ، فمنهم من آمن بدعوته ومنهم من قال : تبا لك ،وانصرف [3] .

فالمعلم الثانى من سيرة الرسول ﷺ خاص بالقسم الذى وافق على الدعوة من المعلم الأول (الذى هو نشر الدعوة) واستجاب لها وآمن بها ، فمفهوم هذا المعلم إذن هو تكوين ذلك المستجيب للدعوة على أسس الدعوة ،وصبغه بمحتواها وأفكارها وتعاليمها ، وهذا ما لا يمكن أن يكون فى نطاق المعلم الأول الذى هو النشر والإعلام بل لا يمكن أن يكون إلا فى نطاق التربية والتعليم ، والتربية والتعليم لا يمكن أن تكون إلا فى نطاق المعلم الثانى وهو معلم التكوين .

---

(١) انظر : ابن إسحاق بتحقيق سهيل زكار ١٣٧ فى قصة إسلام على بن أبى طالب .
(٢) انظر : ابن هشام ١ / ٢٤٧ فى تفصيل عرضه ﷺ الإسلام على عمه أبى طالب .
(٣) انظر : فتح البارى ٨ / ٧٣٧ فى تفصيل وقوفه على الصفا ﷺ .

وأما القسم الذى رفض الدعوة ولم يستجب لها فمكانه أن يبقى فى المعلم الأول ، وصلة الدعوة به التبليغ والإنذار ، حتى يفتح الرب سبحانه وتعالى ويأذن بمجابهته وإخضاعه للدعوة الإسلامية .

﴿ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأعراف] .

قال الإمام الطبرى عند تفسير هذه الآية : (يعنى بقوله تعالى ذكره : ﴿ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُم ﴾ وإن كانت جماعة منكم وفرقة آمنوا ، يقول صدقوا ﴿ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ ﴾ من إخلاص العبادة لله . . . فاتبعونى على ذلك ﴿ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا ﴾ يقول : جماعة أخرى لم يصدقوا بذلك ولم يتبعونى عليه ﴿ فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ﴾ فهو خير من يفصل) (١) .

نموذج الحركة فى هذا المعلم :

ولتوضيح ما قلنا فى هذه النقطة قمنا برسم توضيحى (٢) له تضمن الكرة الأرضية، وموقع مكة منها ، وكيف بدأ الرسول ﷺ المعلم الأول ، ثم انقسام الناس إلى موافق على دعوته ، وغير موافق عليها ، ثم كيف بدأ المعلم الثانى مع القسم الموافق وماذا فعل مع القسم الذى لم يوافق على دعوته .

والمعلم الثانى من سيرته عليه الصلاة والسلام مكمل للمعلم الأول وملتحم به ، فهما معلمانا يتمم أحدهما الآخر . فالذين يقفون عند الخطوة الأولى من الدعوة والتى هى التبليغ والإخبار ، ولم ينتقلوا بمن وافقهم على دعوتهم إلى الخطوة الثانية ، التى هى البناء والتكوين ، أناس يسيرون بدعوتهم على غير نهج الرسول ﷺ فى دعوته .

إن الذين اكتفوا فى دعوتهم بالخطب على المنابر فى المساجد والمحاضرات والندوات فى المدارس والجامعات ، ولم ينقلوا من وافقهم على ما جاء فى خطبهم ومحاضراتهم إلى خطوة تكوينية كمرحلة ثانية ، مثلهم كالباسط يديه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه؛ لأنه لم يرفع يديه بالماء إلى فيه كمرحلة ثانية للوصول إلى الشرب .

فكما أنه لابد أن يبلغهم ما عنده من دعوة يجب عليه أن يربيهم على عقائد وأخلاقيات تلك الدعوة ويكونهم عليها ، وإلا فلا يمكن أن تصل دعوته إلى غايتها

---

(١) انظر : تفسير الطبرى ٨ / ٢٤٠ .

(٢) انظر الرسم بصفحة / ٢٠٩ .

المرجوة .

وإذا كان للمعلم الأول وسائله وخطواته فإن لهذا المعلم أهدافه وأساليبه كذلك .

شعار هذه المرحلة :

ومن أهم شعارات ذلك المعلم هو توجيه الرب سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ والدعاة من بعده ذلك التوجيه المتمثل فى قوله تعالى : ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** (٢٨) ﴾ [الكهف] .

فالآية الكريمة تأمر النبى ﷺ بأن يصبر على تقصير وأخطاء المستجيبين لدعوته ، وأن يصبر على كثرة تساؤلاتهم خاصة إن كانت خاطئة ، وأن يصبر على ترددهم فى قبول التوجيهات ، وأن يجتهد فى تصبيرهم على فتنة أعداء الدعوة ، وأن يوضح لهم طبيعة طريق الدعوة ، وأنها شاقة ، وألا يغرر به مغرر ليبعده عنهم ، وألا يسمع فيهم منتقصا ، ولا يطيع فيهم متكبرا أغفل الله قلبه عن حقيقة الأمور وجوهرها .

أهداف تلك المرحلة :

ومن أعظم أهداف هذا المعلم ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** (٢) ﴾ [الجمعة] .

فالآية تبين أن من أهم أهداف هذا المعلم تحويل عقل الأمى من أميته إلى العلم والحكمة والمعرفة ، وتحويل روحه وسلوكه من الضلال والغى إلى الطهر والتزكية ، وهذا لا يكون إلا عن طريق التربية والتعليم اللذين هما محور معلم التكوين .

الجانب التنظيمى فى هذا المعلم :

والجانب التنظيمى فى المعلم الثانى من سيرة الرسول ﷺ فى بناء الجماعة الذى هو التكوين ، قد يأتى دوره فى مرحلة الاتصال الفردى فى المعلم الأول ، وهى المرحلة السرية ، وقد يأتى وقته أو دوره فى مرحلة الاتصال الجماعى من المعلم الأول ، أو يأتى وقته فى كلا المرحلتين .

ولقد سلك الرسول ﷺ أسلوبا خاصا فى كل حال من الأحوال الثلاثة :

١ ـ إذا جاء وقته فى المرحلة السرية :

فإذا كان وقت ذلك المعلم فى مرحلة الاتصال الفردى وهى المرحلة السرية ، فقد سلك الرسول ﷺ طريق توزيع المستجيبين للدعوة والذين هم فى معلم التكوين إلى خلايا صغيرة يتراوح عدد أفرادها بين الثلاثة إلى الخمسة ، تجتمع تلك الخلايا يوميا أو دوريا لتتكون فى أماكن مختلفة وأزمنة مختلفة ، ومن الأمثلة على ذلك من سيرة الرسول ﷺ :

أ ـ ما قاله ابن إسحاق : (كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلوا ذهبوا فى الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم فبينما سعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فى شعب من شعاب مكة إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم ، فضرب سعد بن أبى وقاص يومئذ رجلا من المشركين بلحى بعير فشجه فكان أول دم أهريق فى الإسلام) (١) .

فهذا قول صريح فى توزيع الرسول ﷺ أفراد الدعوة إلى خلايا صغيرة وفى أماكن مختلفة .

ب ـ وكذلك من قصة خروجه ﷺ مع على بن أبى طالب إلى شعاب مكة يصليان فيها . قال ابن إسحاق : (أن رسول الله ﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة وخرج معه على بن أبى طالب مستخفيا من أبيه أبى طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه فيصليان الصلوات فيها) (٢) .

جـ ـ ومن قصة إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ،قال ابن إسحاق من حديث طويل: (فرجع عمر عامدًا إلى أخته وختنه وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها مطلع سورة طه يقرئهما إياها . . .) ففى هاتين القصتين أيضا دليل على ما نقول وهو توزيع الرسول ﷺ لأصحابه فى تلك المرحلة العصيبة من حياته ﷺ إلى خلايا صغيرة وهى مرحلة سطوة الباطل عليهم وسرية الدعوة نتيجة لتلك السطوة الطاغية .

د ـ وكذلك من قصة (٣) إسلام على رضي الله عنه عندما جاء ووجد الرسول ﷺ يصلى

---

(١) السيرة لابن هشام ١/٢٦٨ ، وانظر : بهجة المحافل وشرحه ١/ ٧٦ ، والروض الأنف للسهيلى ٣ / ٤٣ .

(٢) السيرة لابن هشام ١ / ٢٤٦ وكذا فى عيون الأثر لابن سيد الناس ١ / ٩٣ .

(٣) جاء فى السير والمغازى : (حدثنا أحمد : حدثنى يونس عن ابن إسحاق قال : ثم إن على بن أبى طالب جاء بعد ذلك بيومين فوجدهما يصليان فقال على : ما هذا يا محمد ؟ فقال النبى ﷺ : « دين الله الذى اصطفى لنفسه وبعث به رسله فأدعوك إلى الله وحده ، وإلى عبادته ، وكفر باللات والعزى » ، فقال له =

مع زوجه خديجة وكانا بصلاتهما معا يمثلان خلية من خلايا الدعوة المنتشرة فى مكة حينئذ، وهى مرحلة بارزة فى الدعوة الإسلامية فى المرحلة المكية بقيادة الرسول ﷺ ، يتوجب على الدعاة فى كل زمان ومكان أن يقفوا عندها طويلا ، وعلى وجه الخصوص فى عصرنا الحاضر الذى بلغت فيه أجهزة التجسس على الإسلام والمسلمين أعلى ما يمكن أن يتصوره عقل بشرى من حيث العدد والعدة ، والخبث فى التخطيط ، والمهارة فى الأساليب والدقة فى التنفيذ .

٢ ـ إذا جاء وقته فى المرحلة العلنية :

وأما إذا كان وقت ذلك المعلم هو التكوين فى وقت الاتصال العام ـ أى مرحلة الجهر بالدعوة ـ فقد سلك الرسول ﷺ طرقا تختلف عن الطرق التى سلكها فى المرحلة السرية ، من هذه الطرق :

أ ـ الحلقات الجماعية الكبيرة .

ب ـ والرحلات الجماعية الخاصة .

جـ ـ وكذا تهيئة الجو العام للدعوة بالخطب والمواعظ العامة .

فقد كانت دار الأرقم بن أبى الأرقم من أكبر حلقات التكوين فى حياة الرسول ﷺ حيث كان يجتمع فيها ما يقارب الأربعين ما بين رجل وامرأة للاستماع لدروسه التكوينية الخاصة ، كما ذكر ذلك ابن إسحاق من حديث طويل قال : « فخرج عمر يوما متوشحا سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطا من أصحابه قد ذكر له أنهم قد اجتمعوا فى بيت عند الصفا ، وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء » (١) .

وكذلك أسلوب الرحلات الجماعية الذى سلكه الرسول ﷺ فى تلك المرحلة التكوينية ، فقد اشتهر منها هجرتا الحبشة الأولى (٢) ، والثانية ، وهما غنيتان عن

= على : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم فلست بقاض أمرا حتى أحدث أبا طالب ، فكره رسول الله ﷺ أن يفشى عليه سره قبل أن يستعلن أمره، فقال له: « يا على ، إذا لم تسلم فاكتم ، فمكث على تلك الليلة » ، ثم إن الله أوقع فى قلب على الإسلام فأصبح غاديا إلى رسول الله ﷺ حتى جاءه فقال : ما عرضت على يا محمد ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وتكفر باللات والعزى وتبرأ من الأنداد » ففعل على وأسلم ،ومكث علىٌ يأتيه على خوف من أبى طالب وكتم علىٌ إسلامه ولم يظهر به) ا . هـ . السير والمغازى ص ١٣٧ لابن إسحاق بتحقيق سهيل زكار .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٣٤٣ وهى مبسوطة فى مغازى ابن اسحاق بتحقيق زكار ١٨١ ـ ١٨٥ .

(٢) انظر تفصيل قصتى الهجرتين فى : البداية من ٣ / ص ٦٦ ـ ٨٤ ، وكذلك عيون الأثر لابن سيد الناس ١ / ١١٥ .

التعريف فقد كان الصحابة ﷺ فيها يبتعدون عن الجو الشركى ليخلو لهم جو البيئة الصالحة ، وتدارس القرآن وإقامة الصلوات . . . وهما أسلوبان يتوجب على الداعية الوقوف عندهما للوصول بالدعوة وحملتها إلى ما وصل الرسول ﷺ بالصحابة رضوان الله عليهم إليه من إيمان وصبر وشجاعة وصلاح ونجاح .

أما أسلوب الوعظ والإرشاد فقد كان شغل الرسول الشاغل سحابة نهاره كما أشرنا إلى ذلك سابقا (١) .

* ومما يدخل تحت هذا المعلم الاهتمام بمناهج التربية والتعليم ، فعندما يتولى ذلك الدعاة إلى الله يمكن أن يخرج جيل إسلامى من هذه المدارس والجامعات يحمل الدعوة قولا وعملا . وينشرها فى العالمين .

٣ ـ إذا جاء وقته فى المرحلتين السرية والعلنية :

أما إذا جاء وقت هذا المعلم فى كلتا المرحلتين الاتصال الفردى والاتصال الجماعى فيمكن للداعية تطبيق كل الأساليب الواردة فى المرحلتين الاتصال الفردى والاتصال الجماعى .

وهذا واضح تمام الوضوح فى سيرة الرسول ﷺ فقد كان للدعوة فى مرحلتها الجهرية واجهتان :

الأولى : علنية ومعروفة للناس وهى تمثل الأعلام من رجالات قريش الذين أسلموا ولم تخش الدعوة عليهم سطوة قريش ، فكانت تلك الواجهة تعلن للإسلام وتدعو للعمل به والدعوة إليه ، فكان لها عملها العلنى ومنهاجها العلنى . وأقرب مثال على ذلك أبو بكر الصديق (٢) فمن اللحظة الأولى لإسلامه قام بدعوة أصدقائه إلى الإسلام علنا ، فأسلم على يده الكثير وكان ﷺ يتولى الدفاع عن مستضعفى المسلمين بالعتق وغيره (٣) .

الثانية : سرية وغير علنية للناس ، أى أنها مستخفية بإسلامها وهى تمثل ضعاف المسلمين ممن لا سند لهم يدافع عنهم أمام سطوة قريش وجبروتها ، فكان عملهم كله

---

(١) مثل وقوفه ﷺ على الصفا ، وذهابه إلى أماكن تجمعات الناس ولقاءاتهم وعرضه دعوته عليهم .

(٢) انظر : قصة إسلام الصديق ﷺ والذين أسلموا معه فى سيرة ابن هشام ١ / ٢٤٩ ـ ٢٥٢ ، وهى فى بهجة المحافل ١ / ٧٥ ، وكذا فى فتح البارى ٧ / ١٠٧ .

(٣) انظر : قصة الذين أعتقهم أبو بكر الصديق من مستضعفى المسلمين ١ / ٣١٨ من سيرة ابن هشام .

سريا ، وكانت مناهجهم كلها سرية ، والأدلة على ذلك بدهية لكل متصفح لسيرة رسول الله ﷺ المكية أدنى تصفح ، وهذه نقطة مهمة أيضًا تستوجب توقف الدعاة إلى الإسلام عندها ، وأخذها بعين الاعتبار ففى قصة خباب [1] حين دهم عمر منزل أخته وختنه أبلغ دليل على هذه الواجهة السرية ، حيث اختفى خباب من عمر رضي الله عنه وما كان اختفاؤه عن جبن وعدم رغبة فى الشهادة لو حصلت ، ولكن لأن عمله كان فى منتهى السرية وكذا أمره ﷺ لأبى ذر [2] والطفيل بن عمرو الدوسى بمغادرة مكة بعد إسلامهما مباشرة دون أن يعلم بهما أحد وأن يأتياه عندما يعلمان بانتصاره ﷺ .

(١) انظر : تفصيل قصة خباب بن الأرت فى سيرة ابن هشام ١ / ٣٤٢ ، وهى فى عيون الأثر ١ / ١٢١ ـ ١٢٤ وفى الفتح ٧ / ١٧٧ ـ ١٨١ .

(٢) انظر : تفصيل قصة إسلام أبى ذر الغفارى فى فتح البارى ٧ / ١١٧٣ ـ ١١٧٦ ، وهى فى البداية لابن كثير ٣/ ٣٤ . وانظر قصة إسلام الطفيل بن عمرو الدوسى فى سيرة ابن هشام ١ / ٣٨٢ ـ ٣٨٤ .

obeikandl.com

المبحث الثالث

فى المعلم الثالث من سيرة الرسول
وهو المجابهة المسلحة لأعداء الدعوة

مكان هذا المعلم من معلمى النشر ، والتكوين ، ومفهومه :

بعد بيان مكانة المعلم الثانى الذى هو التكوين للأفراد المستجيبين على مبادئ الدعوة، وصبغهم بتعاليمها،من المعلم الأول الذى هو نشر الدعوة بين الناس،وبيان أنهما معلمان لا ينفصل بعضها عن بعض فى عمل الداعية إلى الإسلام ، نشرع فى بيان المعلم الثالث من سيرة الرسول ﷺ فى بناء الجماعة وترسيخ قواعدها ، وبسط سرادقها (١) على هذه الأرض ، وهو المجابهة المسلحة مع المعارضين لهذه الدعوة ، والذين يمثلون العقبات فى نشر تعاليم الإسلام ، وتكوين المستجيبين له على مبادئ الدعوة وتعاليمها ، ومكانة هذا المعلم من المعلمين السابقين .

إن طبيعة معلم النشر ـ كما قلنا سابقا ـ أنه يقسم الناس الذين تتمكن الجماعة من نشر الدعوة فيهم إلى قسمين رئيسين :

القسم الأول : هم المستجيبون لأفكار الدعوة .

والقسم الثانى : هم الذين رفضوا ما جاءت به الدعوة .

فالقسم الأول : هو الذى يختص به المعلم الثانى الذى هو التكوين على الدعوة .

والقسم الثانى : المعارضون للدعوة وهم الذين يختص بهم المعلم الثالث ، الذى هو المجابهة بالقوة لإخضاعهم لسلطان الدعوة ، بعد أن تقام الحجة البيانية عليهم ، فى المعلم الأول الذى هو النشر لأفكار الدعوة وتعاليمها .

فمكانة معلم المجابهة إذن هو تسلم القسم المقابل لقسم معلم التكوين والتصدى له، إذا أدركنا مما سبق أن الذين يختص بهم معلم التكوين هم المستجيبون للدعوة .

وعلى هذا تكون خلاصة المعالم الثلاثة من سيرة الرسول ﷺ فى بناء الجماعة :

نشر دعوة ، زائد ناس = موافق على الدعوة ، أو غير موافق .

---

(١) السرادق : كل ما أحاط بشىء من حائط . انظر : المعجم الوسيط ١ / ٤٢٨ .

فالموافق يخص معلم التكوين ، **وغير الموافق** يخص معلم المواجهة بالقوة بعد إقامة الحجة .

المواجهة فى العهدين :

ومن خلال النظر فى سيرة الرسول ﷺ نخرج بقسمين رئيسين لهذه السيرة المباركة.

قسم بدأ من البعثة إلى الهجرة .

والقسم الآخر بدأ من استقرار الرسول ﷺ فى المدينة المنورة إلى أن توفاه الله تعالى .

ومن أبرز معالم قسم ما قبل الهجرة أنه نشر للدعوة ، وتكوين عليها ، ومنع لأى مواجهة ابتداء أو لرد اعتداء ، وكان شعار ذلك القسم قوله تعالى : ﴿ **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً** ﴿١١﴾ ﴾ [المدثر]، ﴿**وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً** ﴿١١﴾ ﴾ [المزمل]، ﴿ **كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ** ﴾ [النساء : ٧٧] .

وقوله ﷺ لآل ياسر : « صبرا آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة » (١) الحديث .

إنه شعار الابتعاد عن ساحة الصدام ، والتفرغ للدعوة ، والتكوين عليها ، وجعل المواجهة فى هذه المرحلة بين رب الدعوة مباشرة ، وأعدائها ، وهذه المهادنة والمسالمة وعدم المواجهة من قبل الجماعة ولو على سبيل الدفاع عن النفس ، لا تعنى أنها صفة أصيلة فى الجماعة الإسلامية ، بل الصفة الأصيلة للجماعة هى التى يمثلها قوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ** ﴿٣٩﴾ ﴾ [الشورى] ، إنما تعنى أنها صفة تفرضها المراحل التكوينية للدعوات .

إن دعوة لا تكون هذه صفتها وذلك شعارها فى مراحلها التكوينية فهى دعوة مقضى عليها فى مهدها ، ولو كان عدم الالتزام بهذه الصفة ممكنا لأى دعوة فى مرحلتها التكوينية ، لما اتصفت بها الدعوة الإسلامية فى صدرها الأول ، وهى الدعوة المعصومة والموجهة من العليم الخبير ، ولما تحمل الرسول ﷺ وصحابته كل أنواع الأذى والمهانة فى مكة المكرمة ، وهم صابرون ولم يحرك أحد منهم ساكنا ، فى الوقت الذى تهتك أعراض شريفة وتسيل دماء ذكية ،ويشرد رجال لا يمر الذباب على أنوفهم عزة وكرامة ،

---

(١) أخرجه أحمد تحقيق شاكر ١ / ٣٤٩ وهو عند ابن إسحاق ١ / ٢٠٣ ، والحاكم ٣ / ٣٨٣ ـ ٣٨٩ ، وقال الألبانى فى تعليقه على فقه السيرة للغزالى ص ١٠٧ : (وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى) . وسيرة ابن هشام ١ / ٣٢٠ وهى فى الروض الأنف ٣ / ٢٠١ .

وأنفة وشهامة .

وهى الصفة التى امتدت إلى القسم الثانى من حياة الرسول ﷺ فيما بعد الهجرة، ولكنها لم تكن شعار ذلك القسم البارز كما كانت فى القسم الأول من حياته ﷺ ، بل شعار ذلك القسم وصفته البارزة هى قوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : ١٤] ، ﴿ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ [النساء : ٩١] ، ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال : ٣٩] .

أما صفة المهادنة والمسالمة فلم تكن ظاهرة ظهورها فى عهد ما قبل الهجرة ، ولكنك تلاحظها كثيرا فى العهد الذى بعد الهجرة ، فمع جبهة اليهود كانت المهادنة ظاهرة فى أول الأمر ، قال تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [البقرة] .

فالآية صريحة فى أمر الجماعة الإسلامية فى المدينة المنورة بالعفو والصفح عن استفزازات اليهود ، ومصابرتهم حتى يأتى أمر الله تعالى بمواجهتهم .

وكذلك مع جبهة المنافقين كانت المهادنة واضحة كثيرا ، وإلى زمن طويل من العهد المدنى ، وأمثلة تلك المهادنة كثيرة،ففى غزوة بنى المصطلق وهى فى السنة السادسة على بعض الروايات حدثت قصة : ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ ... ﴾ (١) والتى كادت أن تحدث خلافا كبيرا لولا أن تغاضى رسول الله ﷺ عنها ومررها ، كما جاء ذلك فى البخارى عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : كنا فى غزاة ... فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار ... فسمع بذلك عبد الله بن أُبَى فقال : فعلوها ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ...

فقام عمر فقال :يا رسول الله ، دعنى أضرب عنق هذا المنافق . فقال النبى ﷺ : « دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » (٢) .

قال ابن إسحاق : فلما استقل رسول الله ﷺ وسار لقيه أسيد بن حضير فحياه بتحية النبوة وسلم عليه ثم قال : يا نبى الله ، والله لقد رحت فى ساعة منكرة ما كنت تروح فى مثلها . فقال له رسول الله ﷺ : « أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ قال :

(١) انظر : تفاصيل القصة فى سيرة ابن هشام ٢ / ٢٩١ وهى فى البداية ٤ / ١٥٧.
(٢) أخرجه البخارى ٦ / ١٩١ ، ١٩٢ ، وهو فى الفتح ٨ / ٦٤٨ .

وأى صاحب يا رسول الله ؟ قال : « عبد الله بن أبى » قال : وما قال ؟ قال : « زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » . قال : فأنت يا رسول الله والله تخرجه منها إن شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز . ثم قال : يا رسول ﷺ ، ارفق به ، فو الله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكا (١) .

فهذه القصة وغيرها تدل على امتداد صفة المهادنة إلى العهد المدنى ، وتجعل منها حكما إسلاميا يتكرر كلما برزت علته فى أى زمان ومكان ، والجماعة الإسلامية مطالبة بالالتزام بهذه الصفة كلما أحست قيادتها أن المهادنة أكثر مصلحة للجماعة من المواجهة .

والجماعة فى نفس الوقت غير مفرقة بين العهدين المكى والمدنى من حياة الرسول ﷺ لما أسلفنا .

ولأن صفة الجهاد أى المواجهة فى الإسلام لا يعلنها إلا إمام المسلمين بعد أن يتأكد من قوة جيشه واستعداده .

فعليه لا يحق لأى جماعة من المسلمين أن تجابه مادامت لم تصل إلى الحكم ولو الجزء ، ومادامت لم تصل إلى الحكم والإمامة ، فهى فى مرحلة العهد المكى ، وعليها أن تلتزم بأحكامه من حيث المهادنة والمسالمة وعدم المواجهة مع الباطل بالقوة ، بل حتى لو وصلت إلى الإمام وأعلنتها فمن حق الإمام أن يهادن الجبهة المحاربة إن رأى المصلحة فى ذلك ، لما أوردنا (٢) من مهادنة الرسول ﷺ لجبهة المنافقين واليهود فى المدينة فى الوقت الذى كان على رأس دولة تهابها أكثر الجزيرة العربية .

والذى يحق لأى جماعة فعله بعد أن تدرس كل الجوانب المتعلقة به هو حرب العصابات والمناوشات الفردية ، كما هو واضح من سيرة الرسول ﷺ بعد هجرته إلى المدينة ، فقد كان يناوش قريشا من بعيد بواسطة سرايا صغيرة .

متى تكون المواجهة ؟ :

إن تحديد نقطة الانطلاق فى معلم المواجهة مع الباطل خاصية من خصوصيات القيادة العليا فى الجماعة القائمة على الدعوة فى أى زمان ومكان لكونها المالكة لزمام الأمر والعالمة بكل المعلومات التى تعطى الإشارة بذلك .

---

(١) انظر تفصيل القصة كاملة فى سيرة ابن هشام ٢ / ٢٨٩، وفى البداية والنهاية لابن كثير (٤ / ١٥٧) .
(٢) انظر ص ١٢٩ من هذا الكتاب .

فهى التى تعلم قدرة الجماعة واستعدادها لهذه المرحلة .

وهى التى تعلم تقديرات وإمكانات واستعدادات الجبهة المقابلة .

والجماعة الإسلامية الأولى بقيادة الرسول ﷺ وتوجيه الرب سبحانه وتعالي وهو الموجه الأعلى للدعوة وقتها، من مثل قول الرب سبحانه: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) ﴾ [المدثر] ، ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١) ﴾ [المزمل] ، ﴿ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [النساء : ٧٧] .

ثم استند عليه الصلاة والسلام فى اتخاذه قرار المواجهة فى المدينة المنورة على مثل قوله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) ﴾ [الحج] ، ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

وبما أن الوحى قد انقطع بموت رسول الله ﷺ إلا أن الشريعة قد اكتملت قبل انقطاع الوحى ولقاء الرسول ﷺ ربه، فمن خلال سيرة الرسول ﷺ واستطلاع الأحكام الإسلامية فى هذا الجانب، سنكتب بعض التوجيهات الإسلامية لتحديد نقطة الانطلاق فى المواجهة مع الباطل .

أولا : استقلالية الأرض التى تقف عليها الجماعة :

١ ـ مفهوم الاستقلالية :

أعنى باستقلالية الأرض التى تقف عليها الجماعة ، أن تكون الجماعة هى صاحبة الأرض التى تقف عليها وتنطلق منها ولها السيطرة عليها ، ففى الوقت الذى لا تتمكن الجماعة من إخضاع الأرض التى سوف تنطلق منها للمواجهة ، ومن إحكام سيطرتها عليها ، ومن أنها مستوفية لكل الشروط المساعدة على المواجهة ، من حيث الاكتفاء الاقتصادى، وتأمين طرق الاتصال الخارجى، ولها من وسائل الحماية الطبيعية ما يكفى ، فى الوقت الذى لا تتمكن الجماعة من ذلك كله لا يحق لها أن تحدد ساعة المواجهة مع الباطل ، بل لا وتفكر فيها ، وعليها أن تلتزم بمهادنة ومسالمة العهد المكى من حياة الرسول ﷺ وفى الوقت نفسه تبحث عن الأرض المطلوبة .

٢ ـ عاقبة تحديد المواجهة قبل امتلاك الأرض :

إن الجماعة التى تحدد المواجهة مع السلطة القابضة على الأرض التى تقف عليها الجماعة نفسها جماعة تعبث بقوتها وتهلك أفرادها بأقل كلفة وأيسر خسارة لتلك السلطة المهيمنة على تلك الأرض .

وهى جماعة مقضى عليها بالفشل والتقهقر ، أو الهلاك المحقق عند الاستمرار فى المواجهة ، وهى جماعة بعيدة عن النهج النبوى والتوجيه الربانى .

والأمثلة القريبة على فشل ذلك النهج المتعجل الثمرة قبل نضوجها ، قضية شعب إريتريا مع إثيوبيا، وقضية مسلمى الفلبين مع حكومة الفلبين وغيرهما من القضايا المماثلة. فقضية شعب إريتريا : هى أن قيادته أدخلته فى مواجهة عسكرية مع حكومة إثيوبيا ، وحكومة إثيوبيا هى القابضة على أرض ذلك الشعب والمسيطرة عليها ،فكانت النتيجة أن قتل وشرد أكثر ذلك الشعب، وانسحبت تلك القيادة تجر وراءها ذيول الفشل والخسارة .

وكذلك قضية مسلمى الفلبين ، يقتلون جنديا واحداً من جنود الحكومة التى تحكم الأرض التى يقطنها المسلمون ، فتبيد الحكومة الفاجرة قرية أو عددا من قرى المسلمين .

كل ذلك لأن قيادة المسلمين حددت نقطة المواجهة مع تلك الحكومة قبل أن تملك الأرض التى سوف تنطلق منها إلى تلك المواجهة .

٣ ـ البحث عن الأرض فى سيرة الرسول ﷺ :

منذ اللحظات الأولى من بعثة الرسول ﷺ وهو يبحث عن الأرض التى تصلح للانطلاق منها للمواجهة ، وعن القوم الذين يمكن أن يحموا ظهره فى ساعة المواجهة .

أ ـ ففى أمره ﷺ لصحابته بالهجرة إلى الحبشة إشارة إلى بحثه ﷺ عن تلك الأرض [١].

ب ـ وفى خروجه ﷺ بنفسه إلى الطائف كان فيه إشارة صريحة إلى بحثه عن تلك الأرض التى تصلح للمواجهة فيها . كما جاء فى صحيح البخارى وغيره من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : « هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد ؟ فقال ﷺ : « لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منه يوم العقبة ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهى فلم أستفق إلا بقرن الثعالب » [٢] الحديث .

---

(١) انظر تفصيل الهجرتين إلى الحبشة فى البداية والنهاية ٣ / ٦٦، وهى فى سيرة ابن إسحاق . تحقيق سهيل زكار ١٧٤ ، وهى فى سيرة ابن هشام ١ / ٣٢٢ ـ ٣٤٠ .

(٢) أخرجه البخارى ٤ / ١٣٩ ، ومسلم ٣ / ١٤٢٠ ، وانظر أيضا لابن إسحاق فى السيرة ١ / ٤١٩ ، وبهجة المحافل ١ / ١٢٣ . وقال صاحب بهجة المحافل : (وقد تعدد الحديث فى صحيح مسلم من رواية عائشة عنه ﷺ أن هذا الموقف بالطائف أشد ما لقى فى ذلك) . ا . هـ . وقال محمد فؤاد عبد الباقى فى تعليقه على صحيح مسلم ٣ / ١٤٢٠ : وقرن الثعالب هو قرن المنازل وهو ميقات أهل نجد وهو على مرحلتين من مكة .

جـ ـ وفى سؤاله ﷺ عن الكم والكيف فى القبائل التى يعرض نفسه ودعوته عليها إشارة إلى أنه كان يبحث عن أرض وحماية ذات صفات مَعَيَّنَةٍ وشروط معلومة .

قال الحافظ ابن كثير ـ من حديث طويل عن ابن عباس عن العباس رضي الله عنهما : فأتى بكر ابن وائل فقال : « ممن القوم ؟ قالوا: من بكر بن وائل . . . ، قال: « فكيف المنعة ؟ » قالوا : لا منعة ، جاورنا فارس فنحن لا نتمنع منهم ولا نجير عليهم . . . قالوا : ومن أنت ؟ قال : « أنا رسول الله » ثم انطلق . . . » (١) .

فالحديث الشريف واضح فى طلب الرسول ﷺ لأرض ومنعة معينة ذات شروط معلومة وذلك من خلال أسئلته الموجهة إلى تلك القبيلة ، فلما لم تتوافر له شروطه تركهم وانطلق إلى غيرهم .

د ـ وعدم قبوله ﷺ لشروط القبائل واحترازاتها عندما كان يعرض نفسه عليها دليل واضح أيضًا على أنه كان يبحث عن أرض ومنعة تكون له وحده السيطرة عليها ، ولله وحده حق التوجيه الأعلى لكل أمورها وأحوالها .

يؤكد هذا المعنى الحوار الذى دار بينه ﷺ وبين القوم من بنى شيبان ،وهو الحوار الذى جاء فى حديث ابن عباس الطويل عن على بن أبى طالب رضي الله عنه قال : لما أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا معه وأبو بكر إلى منى . . . فقال مفروق : قد بلغنا أنه يذكر أنه رسول الله .

ثم التفت إلى رسول الله ﷺ فقال : إلام تدعو يا أخا قريش ؟ فتقدم رسول الله ﷺ المجلس وقام أبو بكر يظله بثوبه فقال رسول الله ﷺ : « أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنى رسول الله وأن تؤوونى وتنصرونى حتى أؤدى عن الله الذى أمرنى به » .

فقال المثنى : قد سمعت مقالتك واستحسنت قولك يا أخا قريش وأعجبنى ما

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٢ / ١٦٠، وهو فى البداية والنهاية ٣ / ١٤٠ . ويؤكده حديث ابن عباس عن على ابن أبى طالب رضي الله عنه قال : لما أمر الله رسوله أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا معه وأبو بكر إلى منى . . . والذى قال فيه الزرقانى : أخرجه الحاكم وأبو نعيم والبيهقى بإسناد حسن . انظر : المواهب ١ / ٣٠٩ ، والسيرة النبوية لابن كثير ٢ / ١٦٣ ، وكذا حديث جابر رضي الله عنه عند أحمد وأبى داود والترمذى وابن ماجه قال: كان النبى ﷺ يعرض نفسه على الناس بالوقت فيقول: « هل من رجل يحملنى إلى قومه ؟ » . . . والذى قال فيه الترمذى : حسن صحيح . انظر : مسند أحمد ٣ / ٣٢٢ ، وأبى داود ٤ / ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، والترمذى ٥ / ١٨٤ ، وابن ماجه ١ / ٧٣ ، وهو فى البداية والنهاية ٣ / ١٤١، والسيرة النبوية ١ / ١٧١ لابن كثير وكذا فى المواهب اللدنية ١ / ٣٠٩ .

تكلمت به والجواب هانئ بن قبيصة ، وإنا إنما نزلنا بين صريين [1] أحدهما اليمامة والآخرة السماوة . فقال رسول الله ﷺ : وما هذا الصريان ؟ .

فقال له أما أحدهما فطفوف البر وأرض العرب ، وأما الآخر فأرض فارس وأنهار كسرى ، وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى ألا نحدث حدثا ولا نؤوى محدثا ، وهل هذا الأمر الذى تدعونا إليه مما تكرهه الملوك ،فأما ما كان مما يلى بلاد العرب فذنب صاحبه مغفور وعذره مقبول ، وأما ما كان مما يلى بلاد فارس فذنب صاحبه غير مغفور وعذره غير مقبول ، فإن أردت أن ننصرك ونمنعك مما يلى بلاد العرب فعلنا .

فقال رسول الله ﷺ : « ما أسأتم الرد إذ أفصحتم بالصدق ، إنه لا يقوم بدين الله إلا من أحاطه من جميع جوانبه » . . . ثم نهض . . . الحديث [2] .

فالحديث واضح أيضًا فى طلب الأرض والمنعة غير المشروطة بشروط أو احترازات وصدق رسول الله ﷺ إنه لا يقوم بدين الله إلا من أحاطه من جميع جوانبه فلا يمكن أن ينصر هذا الدين من أخذ بعضه وترك بعضه الآخر .

هـ ـ وأخيرا وجد رسول الله ﷺ ضالته مستكملة الشروط والصفات ، وجدها فكانت المدينة المنورة ، وجد طلبه كاملا بعد أن رفع إلى الملأ الأعلى أكف الضراعة فجاء الأمر الكريم بالدعاء المبارك : ﴿ **وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا** (٨٠) ﴾ [الإسراء] .

وإنها لنقطة هامة يجب على الدعاة الوقوف عندها فى كل حركة ولحظة من دعوتهم إلى الله تعالى ، تلك النقطة هى العودة إلى قاضى الحاجات مع بذل الأسباب البشرية للوصول إلى الحاجات ، لقد سبق فى علم الرب تعالى شأنه أن الأرض صالحة لانطلاق الدعوة الإسلامية بقيادة الرسول ﷺ هى المدينة المنورة ، ولكنه سبحانه ترك السيد الرسول ﷺ يبذل من الأسباب البشرية للوصول إلى مطالبها الكثير ، والتى أشرنا إلى طرف منها [3] .

وذلك ليس للدعاة الإسلاميين ذلك المنهج القويم ، تركه يبذل من الجهد الكثير

---

(١) الصريين تثنية صرى وهو كل ماء مجتمع . انظر : لسان العرب ١٩ / ١٩٢ .

(٢) انظر :الزرقانى على المواهب للقسطلانى ١ / ٣٠٩ وقال : أخرجه الحاكم وأبو نعيم والبيهقى بإسناد حسن، وهو فى السيرة النبوية لابن كثير ٢ / ١٦٣ ـ ١٦٩ . وهو مؤيد بحديث جابر المذكور بهامش ص ١٣٤ من الكتاب والذى قال فيه الترمذى : حديث حسن صحيح ، فانظر تخريجه هناك .

(٣) انظر ص ١٣٣ ، ١٣٤ من هذا الكتاب .

ويتحمل من العناء الكثير حتى ضاقت به الأرض بما رحبت دون أن يستقر رأيه على المكان المناسب لتلك الانطلاقة المباركة ،وأخيرا وبعد أن نفدت كل حيلة لذلك الرسول العظيم ، وبعد أن عبر لربه سبحانه عن نفادها فى صورة ذلك الدعاء الفياض بعد عودته من الطائف، أرشده سبحانه وتعالى إلى مفتاح ذلك المطلب ، ذلك المفتاح هو التوجه إلى قاضى الحاجات بطلب الهداية والإرشاد منه سبحانه ، فكان التوجه من الرسول العظيم ،وكانت الهداية إلى المفتاح : ﴿ **وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا** ﴿٨٠﴾ ﴾ [الإسراء] .

إنه مفتاح فى برقية لا تتعدى كلماتها سطرًا واحدا كان من بعدها مباشرة خروجه ﷺ المخرج المبارك بالهجرة ، ودخوله المدخل المبارك إلى المدينة المنورة ، ونصره النصر المؤزر بعد ذلك ، النصر الذى كان بعده الظهور والعزة للإسلام ولبنى الإسلام .

قال ابن إسحاق : (فلما أراد الله إظهار دينه وإعزاز نبيه وإنجاز موعده له خرج رسول الله ﷺ فى الموسم الذى لقيه فيه النفر من الأنصار فعرض نفسه على قبائل العرب ، كما كان يصنع فى كل موسم فبينا هو عند العقبة لقى رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيرا ، فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا : لما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم : « من أنتم ؟ » قالوا : نفر من الخزرج . قال : « أمن موالى يهود ؟ » قالوا : نعم . قال : « أفتجلسون أكلمكم ؟ » قالوا : بلى ، فجلسوا معه فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، . . . فلما كلم رسول الله ، أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله ،قال بعضهم لبعض: يا قوم،تعلمون والله أنه النبى الذى توعدكم به يهود ، فلا يسبقنكم إليه فأجابوه فيما دعاهم . . .) [1] .

ثم كانت البيعة الأولى ، ثم الثانية فكانت الأرض بكل شروطها ، وكانت المنعة بكل لوازمها ، ثم كانت الهجرة النبوية العظيمة ، وبسطت الدعوة الإسلامية سلطانها على المدينة المنورة ، ثم كانت الانطلاقة من هناك ، من المدينة المنورة لمواجهة الباطل بقوة السلاح ، كانت الانطلاقة بعد أن حصلت الأرض التى وقفت عليها الدعوة الإسلامية ، والجماعة الإسلامية ، فكانت الفتوح بعد ذلك وكان النصر ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٤٢٨ ـ ٤٣٠ ،وهو فى البداية ٣ / ١٤٨ ، ١٤٩ ، وقد ورد هذا المعنى فى رواية ابن عباس عن على بن أبى طالب رضي الله عنه فى الحديث السابق الذى أخرجه الحاكم وأبو نعيم والبيهقى بإسناد حسن .

إن المقدمة الأولى لنقطة الانطلاق إلى الباطل لنواجهه هى أن توجد الأرض المكتملة للشروط التى أشرنا إليها ،وبدونها لا مواجهة ، بل مسالمة وبحث عن الأرض حتى توجد والله المستعان وهو ولى التوفيق .

ثانيا : اكتمال العدد :

ونعنى باكتمال العدد أن يصل عدد أفراد الجماعة الذين سيدخلون المعركة رقما معينا ونسبة معينة،من الجيش المقابل،وسأحدد ذلك الرقم وتلك النسبة من النصوص الشرعية التالية :

١ ـ مفهوم العدد من آيتى المصابرة :

من قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾**﴾ [الأنفال] .

نفقه من هاتين الآيتين ما يلى :

أ ـ أنهما تبدآن بأمر النبى ﷺ بتحريض المؤمنين على القتال،وهو إشارة إلى المواجهة مع الباطل .

ب ـ ثم تحدد الآيتان ضابطا دقيقا للقيادة الإسلامية يحدد لها بالأرقام متى يمكنها دخول المعركة مع العدو ؟ ومتى لا يمكنها ذلك ؟وهذا الضابط هو متى بلغ عدد الجيش الإسلامى نسبة واحد إلى اثنين من الجيش المعادى يجب على الجماعة دخول المعركة ، وهو أقل معدل ،ومتى بلغ عدد الجيش الإسلامى نسبة واحد إلى عشرة من الجيش المعادى يجوز للجماعة دخول المعركة ويجوز لها عدم دخولها . وهو أعلى معدل .

والذى يقرر النسبة الأولى أو الثانية هو هبوط المستوى الإيمانى فى الجيش الإسلامى أو ارتفاعه .

جـ ـ وأن الآيتين تبينان لنا أن الجيش الإسلامى قد يكون فى مرحلة من مراحله على درجة عالية من الإيمان والصبر والنظام والتنظيم فيعدل الواحد منه عشرة من الجيش المقابل .

وقد يكون فى مرحلة من ضعف الإيمان والصبر وارتجال الأمور فيعدل الواحد منه اثنين من الجيش المعادى .

وأحب أن أشير هنا أن فقهنا هذا من الآيتين لا يعنى أننا نتجاهل جانب الناسخ والمنسوخ فى القرآن بل هو ظاهر الآيتين .

٢ ـ الأحاديث النبوية فى تحديد المواجهة :

حدد رسول الله ﷺ أرقاما مختلفة للجيوش التى لا تغلب من جهة النقص فى العدد مهما كان عدد الجيش المعادى أو ضخامته .

أخرج أحمد ـ رحمه الله ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « خير الأصحاب أربعة ، وخير السرايا أربعمائة ، وخير الجيوش أربعة آلاف ، ولا يغلب اثنا عشر ألفا من قلة » (١) .

٣ ـ سيرته الشريفة تحدد عدد المواجهة :

ودخوله ﷺ معركة بدر الكبرى بثلاثمائة وبضعة عشر رجلا فيه إشارة إلى العدد الذى يمكن للقيادة الإسلامية فى الجماعة أن تحدد بموجبه ساعة المواجهة مع الباطل . أخرج البخارى عن البراء (٢) رضي الله عنه قوله : « حدثنى أصحاب محمد ﷺ ممن شهد بدرًا أنهم كانوا عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا النهر بضعة عشر وثلاثمائة » .

٤ ـ تنبؤ عمر رضي الله عنه :

عندما حاول المشركون ضربه بعد إسلامه بالعدد الذى يمكن للجماعة الإسلامية أن تواجه به القوة الكافرة وهو ثلاثمائة رجل . قال ابن كثير فى البداية ـ من حديث طويل عن قصة إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه . . . « افعلوا ما بدا لكم ، فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاثمائة لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا » (٣) .

وذكرى هنا لقول عمر هذا ليس على أنه نص قاطع فى تحديد نقطة الانطلاق فى المواجهة ولكن لأنه تنبؤ أكدته النقطة السابقة وهو مواجهة الرسول ﷺ المشركين فى بدر بهذا العدد ، وهى الغزوة التى تعتبر نقطة البداية فى المواجهة العسكرية مع الكفر ،حيث إن كل ما سبقها من سرايا وغارات يعتبر مقدمات وإرهاصات لها .

٥ ـ وخلاصة معلم المواجهة :

أن تحديد بدء المواجهة من خصوصيات القيادة العليا للجماعة ، وأنها لا تكون إلا

---

(١) مسند أحمد بتحقيق شاكر ٤ / ٢٣٧ ،وقال شاكر : إسناده صحيح ، وذكره السيوطى فى الجامع الصغير وصححه ، ونقل المناوى فى الفيض قول ابن القطان فى تصحيح الحديث . انظر : فيض القدير ٣ / ٤٧٤ .

(٢) صحيح البخارى المجلس الأعلى ٦ / ٢٣٩ ، وفى مسند أحمد ٤ / ٢٩١ ، وابن ماجه ٢ / ٩٤٤ .

(٣) البداية ٣ / ٨٢ ، وقال الحافظ ابن كثير عند سند هذا الحديث : وهذا إسناد جيد قوى .

بعد التمكن من الأرض الصالحة التى سيكون منها ذلك الانطلاق ، واكتمال العدد الذى ستكون به المواجهة ، فعلى الدعاة أن يدركوا هذا المعلم جيدًا .

والله الموفق إلى ما فيه الصواب .

obeikandl.com

المبحث الرابع

فى المعلم الرابع من سيرة الرسول
وهو السرية فى عمل بناء الجماعة

مفهوم السرية :

بعد أن بينت فى المعالم الثلاثة من سيرة الرسول ﷺ الكيفية التى يمكن بموجبها الوصول إلى بناء هيكل الجماعة ، التى سيكون على عاتقها إعلان جماعة المسلمين ورفع رايتها ، أبين العوامل التى يمكن بوجبها تمرير عملية بناء ذلك الهيكل بسلام ، وتتلخص هذه العوامل فى المعالم الثلاثة الآتية ، والتى هى :

١ ـ السرية فى حركة بناء الجماعة .

٢ ـ الصبر على متاعب الطريق .

٣ ـ الابتعاد عن ساحة المعركة مع الباطل فى المرحلتين الأوليين :النشر والتكوين .

ولنبدأ **بالمعلم الأول** : السرية . وترتيبه الرابع فى معالم سيرة الرسول ﷺ ونقصد بالسرية فى عمل بناء الجماعة : أن تنحصر معلومات خطة العمل فى محيط القيادة العامة للعمل ، وأن يجهل الأشخاص ـ فى العمل السرى ـ بعضهم بعضا من حيث التكاليف والمهام ، وأن يعلم كل واحد فى العمل مهمته دون غيره فلا تخرج معلومات مهام عمرو إلى زيد بحال من الأحوال ، وهذا واضح من حياة الرسول ﷺ فى دعوته .

أ ـ ففى احتفاظ الرب سبحانه وتعالى بالقرآن الكريم كاملا فى السماء الدنيا ، ثم تنزيله شيئا فشيئا إلى الرسول ﷺ والمؤمنين وهو الذى يمثل خطة العمل للدعوة الأولى، دليل واضح على وجوب احتفاظ القيادة العليا فى الجماعة بخطة العمل ككل ثم إنزالها إلى القواعد بتدرج وسرية كاملة .

ب ـ وفى قصة هجرته ﷺ إلى المدينة المنورة دليل واضح على ما نقول من حيث حصر خطة العمل كافة فى نطاق القيادة ثم توزيع مهام العمل على أفراد ، كل واحد فى مهمة خاصة لا علاقة لها بمهمة غيره .

فعلى بن أبى طالب على الأمانات والودائع ، وعبد الله بن أبى بكر على الأخبار

obeikandl.com

وحركة العدو،وأسماء بنت أبى بكر على جانب الطعام ، وعامر بن فهيرة على الأغنام ، وعبد الله بن أريقط على الراحلتين ودلالة الطريق . . . إلخ ، كما جاء ذلك فى قصة هجرته ﷺ (١) .

جـ ـ وكذا قصة سرية عبد الله بن جحش للإتيان بأخبار قريش ، من حيث جعل خطة عمل السرية بيده ومن كونها مخفية حتى على عبد الله نفسه حتى ابتعد عن المدينة مسافة طويلة ، وكذا غيرها من القصص المماثلة .

إن الوقت الذى توفق الجماعة الإسلامية فيه إلى السير على الخطوط التى رسمها رسول الله ﷺ ـ وهو يبنى جماعته الأولى والتى كان على عاتقها نصر الإسلام ـ تكون سائرة على النهج القويم ، وفى الوقت الذى تتنكب طريقه ﷺ تكون معرضة للزلل والضلال .

والسرية فى العمل من أهم الخطوط التى رسمها ﷺ ليسير عليها الدعاة إلى الله تعالى .

الخلط فى مفهوم السرية :

وفى مجال السرية فى عمل بناء الجماعة الإسلامية يخلط كثير من الدعاة إلى الإسلام فى هذه الأيام خلطا كثيرا .

فمنهم من أدخل ما يجب الجهر به من تعاليم الإسلام ، فى نطاق ما يجب الإسرار به وكتمانه،ومنهم من عكس الأمر ، فهو يثرثر بكل شىء وفى كل مكان ولأى إنسان .

القسم الأول :

فنجد الأول لا يخوض فى موضوع من موضوعات الدعوة ، ويبتعد عن كل ما يشير إلى ذلك بل تجد بعضهم أخذ يتنكر لكثير من مظاهر الدين الإسلامى . ثم أخذ يتشبه ببعض التقاليد غير الإسلامية ، لإبعاد شبهة التزمت عنه وعن الدعوة التى يحملها بزعمه ، ولإخفاء شخصيته الحركية .

وهذا أمر خطير على الشخص نفسه من حيث وقوعه فى الإثم ، وخطير على دعوته ، ومن حيث أن الداعية المسلم يدعو الناس بقوله وفعله وسلوكه ، فإذا سكت عما يجب الجهر به من الدعوة ، وتجرد من التطبيق العملى لمظاهر الإسلام وتعاليمه فماذا بقى ؟ إنه تجرد عما يدل على إسلامه كفرد ، ونسف دعوته من حيث القدوة ،

(١) انظر تفصيل هجرته ﷺ فى البداية ٣ / ١٧٧ ـ ١٩٦ .

وضرب الجماعة التى ينتمى إليها من حيث تمثيله لها ، وتقمصه شخصيتها الإسلامية ، فلهؤلاء نقول : ليس من السرية بحال كتمان الدعوة الإسلامية كفكرة وتعاليم ، بل يجب أن يعرض على الناس هذا الدين عرضا شيقا يبرز محاسنه ، كما يبرز مساوئ غيره من المبادئ الهدامة أو الفكر المنحرف ، ولا يجوز بحال أن يكتم العلم ، فالله سبحانه وتعالى قد أخذ الميثاق على أهل العلم ليبينوا ذلك العلم وينشروه بين الناس .

قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧)** ﴾ [آل عمران] .

وقال النبى ﷺ : « من سئل عن علم فكتمه أَلْجَمَه الله يوم القيامة بلجام من نار » (١) .

وهذا ما تؤكده الآية القرآنية فى وعيد شديد مخيف : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠)** ﴾ [البقرة] .

وهكذا يشترط فى توبة هؤلاء الصلاح والتبيين وهذا مما لا يخفى على من له أدنى بصيرة بهذا الدين ، والآية السابقة وإن كان بعض أهل العلم قال :

« نزلت فى أهل الكتاب كتموا صفة محمد ﷺ » كما نقل ذلك الحافظ ابن كثير (٢) : عن أبى العالية ، إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

ففى ذلك المجال العلمى لا تجوز السرية ولا يباح الكتمان .

وكذلك الأمر بالنسبة لتغيير المنكر إذا لم يوجد من يغيره البتة باللسان فلا يكفى فيه التغيير بالقلب ، بل لا بد من إقامة الحجة على أهل الباطل وأصحاب البدع والأهواء ، فأحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ حينما رأى أن العلماء فى عصره قد اكتفوا فى تغيير المنكر بقلوبهم فى فتنة خلق القرآن ، لم يسعه إلا أن يجهر برأيه ، وأن يقول كلمة الحق ، مدوية غير مبال بما يصيبه فى سبيلها (٣) .

---

(١) أخرجه أحمد فى مواضع عدة منها ١ / ٤٣١ ، ٢ / ٢٦٣، والترمذى ٥ / ٢٩ ـ ٣٠ ، وقال : حديث حسن ،وأبو داود ٣ / ٣٢١ ، وابن ماجة مقدمه ص ٩٧ ، وأشار إليه السيوطى فى جامعه بالصحة . ونقل المناوى تصحيح الحاكم للحديث وموافقة الذهبى عليه فى الكبائر : فيض القدير ٦ / ١٤٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ١ / ٢٠٠ .

(٣) انظر : أحمد بن حنبل إمام أهل السنة للأستاذ عبد الحليم الجندى ٤٤٩ ـ ٤٦٩ .

وكم شهد التاريخ قديما وحديثا من أمثال أحمد بن حنبل الذين قالوا كلمة الحق ولم تأخذهم فى الله لومة لائم،وكثير منهم فاز بالشهادة بسبب ذلك ،والرسول ﷺ يقول : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » (١) .

ويقول : « سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله » (٢) .

القسم الثانى :

والقسم الثانى من الذين خلطوا بين ما يجب إظهاره وبين ما يجب إسراره،هو الذى يثرثر بكل شىء ، وفى أى مكان ، ولأى إنسان ، ونقول لهؤلاء لا تكونوا من الذين قال الله فيهم : ﴿ **وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٣)** ﴾ [النساء] .

فإن هؤلاء قوم لم يألفوا النظام ، ولم تتشرَّب نفوسهم تعاليم الإسلام ،ولم تدرك عقولهم أثر الإشاعات فى خلخلة الصفوف ، وما يترتب عليها من نتائج سلبية قد تكون مدمرة ؛ لأنهم لم يرتقوا إلى مستوى الأحداث ولم يدركوا حقيقة الموقف .

إن كلمة عابرة وفلتة لسان قد تجر من العواقب على الشخص نفسه وعلى جماعته كلها ما لم يخطر له ببال .

وقد حث رسول الله ﷺ المسلمين على الكتمان فى أحاديث كثيرة،مثل قوله ﷺ: « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » (٣) .

وقوله ﷺ: « استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان،فإن كل ذى نعمة محسود » (٤).

وعلى كلا الحالين فهنا إفراط وهناك تفريط ،والأفضل أن ينظر الطرفان فى أمرها ،

---

(١) أحمد فى مواضع عدة منها ٣/١٩ ، وابن ماجه ٢ /١٣٢٩، والنسائى ٧ / ١٦١ ، والترمذى ٤ / ٤٧١ ، وقال : حديث حسن غريب من هذا الوجه ،وذكره السيوطى فى الجامع الصغير وصححه ،ونقل المناوى تصحيحه فى الفيض عن الضياء والمنذرى ،انظر :فيض القدير ٢/ ٣٠ ،٣١ ، وأخرجه أبو داود ٤ /١٢٤ .

(٢) وذكره السيوطى فى الجامع الصغير وصححه وقال المناوى فى شرحه : قال الحاكم : صحيح ، وتعقبه الذهبى بأن فى سنده حفيظ الصغار لا يعرفه الذهبى .

(٣) أخرجه البخارى ٨ / ١٢٥ ، ومسلم ٦٨/١ ،وهو فى الفتح ٣٠٨/١١ ، وابن ماجه ٢ /١٣١٣ ،والترمذى ٤ / ٣٤٥ ، وأحمد ٥ / ٢٤ ، والدارمى ٢ / ٩٨ .

(٤) أخرجه السيوطى فى الفتح الكبير ١ / ١٧٩ ، وقال عنه المناوى فى فيض القدير :ضعيف ،ونقل قول العراقى فى تضعيفه ١ / ٤٩٣ ، وأشار السيوطى أنه قد خرجه العقيلى فى الضعفاء وابن عدى فى الكامل والطبرانى فى الكبير وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى شعب الإيمان ، ولم أطلع على ذلك .

بأن يكون لهما ميزان يفرقون به بين ما يجب أن يكتم ، وما يجب أن يجهر به فى خطة العمل الجماعى للدعوة الإسلامية .

والميزان فى نظرى والله أعلم بالصواب : أن كل عمل ينقسم إلى قسمين من حيث وجوده فى الحياة : والعمل الإسلامى واحد من هذه الأعمال فهو ينقسم إلى قسمين :

أ ـ قسم تنظيمى وهو الذى يجب أن يكون سرا .

ب ـ قسم فكرى وروحى وهو الذى يجب أن يكون جهرا ـ ضمن خطة مدروسة .

فهذا التقسيم فى حياة الرسول ﷺ (خاصة العهد المكى) واضح كل الوضوح .

ففى الوقت الذى ينظم فيه ﷺ خلايا العمل السرى ، الذى يجرى فى دار الأرقم ابن أبى الأرقم ، وغيرها من الخلايا الأخرى ، مثل مهمة خباب بن الأرت فى بيت سعيد بن زيد ختن عمر بن الخطاب ، وما دار مع عمر نفسه فى هذا البيت كما أشرنا إلى ذلك سابقا [1] ، ومثل ما حصل بين الرسول ﷺ وبين أهل بيعة العقبة الأولى والثانية . . . فهذا ما نقصده من العمل التنظيمى الذى يجب إسراره وكتمانه .

وفى نفس الوقت كان يقف ﷺ فى أسواق الناس وأنديتهم مناديا : « قولوا لا إلا إله الله تفلحوا » [2] وكذلك صلاته فى المسجد الحرام على رؤوس الأشهاد ، وهذا هو الذى قصدناه فى القسم الثانى الذى يجب الصدع به وإعلانه للناس ، وشواهد [3] هذا كثيرة فى مسيرته ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم .

فهم قاصر للسرية :

وقد فهم أكثر الناس أن سرية الحركة فى حياة الرسول ﷺ مرحلة مرتبطة بظروف معينة ومحدودة بزمن معين ، حتى حددها أكثر المؤرخين [4] بثلاث سنوات فقط .

والحقيقة أن السرية صفة لدعوة الرسول ﷺ ملازمة لها فى كل أطوارها وعلى امتداد حياة الرسول ﷺ يروى بوضوح الجانب السرى فيما تجب فيه السرية فى العهدين المكى والمدنى .

وإذا كانت أحداث العهد المكى واضحة فى صفة السرية ، فإن العهد المدنى أكثر

---

(١) انظر ص ١٢٤ من الكتاب .

(٢) سبق تخريجه ص ١١٧ من الكتاب .

(٣) مثل وقوفه على الصفا ومناداته الناس ، ومشيه فى أسواق الناس يدعوهم إلى الإسلام وصلاته فى الحرم .

(٤) كل مؤرخى السيرة المطهرة تقريبا .

وضوحا للسرية،وأدق تنظيما لها ، لأنه مرحلة حرب وجهاد ، والحرب خدعة وتورية .

ففى العهد المكى على امتداده كانت هناك أحداث كثيرة تشهد بالتزام الرسول ﷺ وأصحابه بصفة السرية .

أ ـ فدار الأرقم بن أبى الأرقم وما كان يدور فيها من أمور ، خير شاهد على اتصاف العهد المكى كله بصفة السرية ، قال صاحب (١) كتاب السرية فى حياة الرسول ﷺ عند حديثه عن تلك الدار : (وكانت فى مكان آمن لا يهتدى إليه المشركون) .

ب ـ ومن قصة ضرب المشركين لأبى بكر رضي الله عنه وما دار بينه وبين أم جميل فى حضرة أمه دليل على تعمق صفة السرية فى حياة الصحابة عموما . وهى قصة متأخرة فى تاريخها . كما أخرجها صاحب (٢) البداية عن عائشة قالت : (خرج أبو بكر . . . فقال : اذهبى إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه ، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت : إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله ، فقالت : ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله ، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك ، قالت : نعم فمضت معها . . . » .

جـ ـ وكذلك قصة إسلام عمرو بن عنبسة (٣) وأمر الرسول ﷺ له أن يكتم إسلامه ويلحق بأهله .

د ـ وكذا إسلام أبى ذر (٤) والكيفية التى توصل بها إلى رسول الله ﷺ ، حيث اتفق معه الدليل وهو على بن أبى طالب أنه إن رأى بأسا فإنه سيجلس كأنه يريق الماء .

هـ ـ وكذا قصة جهل (٥) عمر بن الخطاب بإسلام أقرب الناس إليه وهما أخته وختنه . وهى قصة متأخرة جدًا (٦) عن الثلاث سنوات التى حددت بها السرية .

و ـ وكذا قصة العقبة الأولى ، والثانية فقد تمت فى غاية من السرية ،وهى من آخر أحداث العهد المكى زمنًا .

ز ـ وأخيرا ما أحاط به رسول الله حادث هجرته (٧) مع أبى بكر من سرية كاملة، وهو الحادث الذى ختم به العهد المكى .

---

(١) السرية فى دعوة الرسول ص ١٠٠ للشيخ على محمد الزبيرى .
(٢) البداية والنهاية ٣ / من ٢٩ ـ ٣١ .
(٣) انظر :البداية ٣ / ٣١ .
(٤) انظر البداية ٣ / ٣٤ .
(٥) انظر :البداية ٣ / ٣١ .
(٦) كما ذكر ذلك الحافظ ابن كثير فى البداية ٣ / ٣١ .
(٧) انظر البداية ٣ / ١٧٧ .

ففى تسلسل هذه الأحداث والقصص من أول العهد المكى إلى آخره دليل على بروز صفة السرية فى ذلك العهد على امتداده ، وأما الأحداث التى تشهد بامتداد صفة السرية إلى العهد المدنى فكثيرة . وخاصة أن العهد المدنى أخذ الطابع الحربى ـ ولم يكن ذلك فى العهد المكى ـ وهو الطابع الأكثر اضطراراً إلى السرية الكاملة. حتى جعل النبى، وزيرا له فى هذا الجانب وأطلق عليه أمين سر رسول الله ﷺ .

قال صاحب دروس فى الكتمان : (وكان حذيفة بن اليمان العبسى رضي الله عنه صاحب سر رسول الله ﷺ) (١) .

وفى مقدمة تلك الأحداث الشاهدة بامتداد صفة السرية لدعوة الرسول ﷺ :

أ ـ قصة خروجه ﷺ مع أبى بكر يوم بدر لاستطلاع خبر عدوه وسؤاله الشيخ وكتمه ﷺ خبره عن ذلك الشيخ ، قال صاحب البداية (٢) : (. . . حتى وقف على شيخ من العرب فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم ، فقال الشيخ : لا أخبركما حتى تخبرانى ممن أنتما ، فقال رسول الله ﷺ : « إذا أخبرتنا أخبرناك » ، فقال : أو ذاك بذاك ؟ قال : « نعم » . قال الشيخ . . . فلما فرغ من خبره قال : ممن أنتما ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نحن من ماء » ثم انصرف عنه . . .) .

فهذه التورية من رسول الله ﷺ على ذلك الشيخ تدل على أصالة السرية فى منهجه ، وأنها ليست خاصة بالعهد المكى أو المدنى ، وليست محصورة فى ثلاث سنوات من دعوته .

ب ـ وكذا قصة سرية عبد الله بن جحش عندما بعثه رسول الهدى ﷺ على رأس سرية ليأتى بخبر قريش . قال : ابن إسحاق (٣) : « وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش الأسدى فى رجب مقفله ـ أى مرجعه ـ من بدر الأولى ،وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد ،وكتب له كتابا وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه . . .) وقد عنون العقاد (٤) على هذا النوع من الرسائل عنوانا سماه (الرسائل المختومة) واعتبرها من صميم السرية .

والظاهر أن مراد القائلين بأن السرية محدودة بثلاث سنوات هو السرية المطلقة ،

---

(١) دروس فى الكتمان من حياة الرسول القائد ص ١٢ تأليف اللواء الركن محمود شيت خطاب .
(٢) البداية ٣ / ٢٦٤ .
(٣) سيرة ابن هشام ١ / ٦٠١ .
(٤) عبقرية محمد ﷺ ص ٥٧ .

المشتملة على كل أمور الدعوة ، حتى أن الذين أسلموا معه فى هذه الفترة كان يطلب منهم كتمان إسلامهم ، ثم بعد هذه الفترة صارت السرية فى بعض أمور الدعوة دون البعض ، وهو مراد مقبول وبه يمكن التوفيق بين ما ذكرناه من مراحل السرية وبين هذا القول الذى يحد السرية بثلاثة أعوام .

خلاصة هذا المعلم :

وخلاصة معلم السرية فى حياة الرسول ﷺ أنه الصندوق الذى تحفظ فيه خطة العمل الجماعى ، والسرادق الذى يحيط بها ويصونها ،وأنه معلم مهم على امتداد حركة بناء الجماعة ، وعلى وجه الخصوص مراحلها الأولى حتى لا تضرب فى مهدها ، وأنه خاص بالجانب التنظيمى من الدعوة فقط . وليس منه الجانب الفكرى أو الثقافى وغيرهما من الجوانب المعلنة فى الإسلام ، فعلى الدعاة أن يهتموا بهذا المعلم ، ويصدروا عنه فى حركتهم ، فهو صمام الأمان الذى يقى العمل الجماعى من العيون المتربصة به ، ولا بد من فقه هذا المعلم ومعرفة حسن استخدامه فى مكانه المناسب وزمانه المناسب ، ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤)﴾ [يوسف] .

المبحث الخامس

فى المعلم الخامس من سيرة الرسول
وهو الصبر على استقرار الجبهة المضادة

الصبر فى مرحلة التكوين سنة من سنن الله تعالى :

ومن أبرز عوامل صيانة هيكل الجماعة فى سيرة الرسول ﷺ فى مرحلة التكوين أمره لجميع أفراد الجماعة بالصبر ،وحبس النفس ، وضبط الأعصاب ، أمام كل تحديات الجبهة المضادة ، وعدم الالتفات لكل ما يصدر عنها من سخرية ،وتطاول على الدعوة وأصحابها ؛ لأن سنة الله تعالى شأنه فى الكون أن كل المخلوقات فى مراحلها التكوينية يرافقها ضعف وعدم قدرة على التصدى للعوامل المضادة ، والجماعة الإسلامية جزء من ذلك الكون تنطبق عليها سننه ونواميسه ، فلابد لها من عوامل صيانة فى مرحلتها التكوينية ، والصبر من أهم عوامل تلك الصيانة وهو سنة إلهية لوقاية الجماعات فى مرحلتها التكوينية .

ظاهرة تكرار الأمر بالصبر :

أما ظاهرة تكرار أمر الله تعالى لأفراد الجماعة الإسلامية بالصبر فهى ظاهرة بارزة فى كل القرآن الكريم والسنة المطهرة ؛ لحاجة الأمة الإسلامية إليه فى كل أحوالها فكان لا بد من تذكيرها بهذا المعنى كلما غفلت عنه ، فكما أنها تحتاجه لتستعين به على الطاعة وتجنب المعصية ، فهى تحتاجه عند جهاد المشاقين لله ، وعند النصر عليهم ، وتحتاجه عند ثقل الحمل وقلة المعين ، تحتاجه عند تأخر النصر ، وطول الطريق ، تحتاجه عند التواء النفوس وضلال القلوب ، بيد أن تكرار ظاهرة الأمر بالصبر فى الجانب المكى من القرآن الكريم كان أكثر بل وفى أوائل السور تنزيلا كان تكرار الصبر والحث على التمسك به واضحا جدًا ؛ لأن الجماعة فى ذلك العهد فى مرحلة ضعف تكوينى ، وقلة سند مادى .

فعلى سبيل المثال لا الحصر وجه الله تعالى نبيه بالصبر فى سورتى المزمل والمدثر وهما من أوائل السور تنزيلا . قال تعالى : ﴿ **وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا** ﴿١٠﴾ ﴾ [المزمل] ، ﴿ **وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ** ﴿٧﴾ ﴾ [المدثر].

هذا التكرار الكثير للصبر فى الجانب المكى من القرآن يدل على أهمية هذا الخلق فى حفظ كيان الجماعة ، وعلى ضرورة التحلى به من قبل أفراد الجماعة ، خاصة فى مرحلتهم التكوينية .

الأدلة على صبره ﷺ ، وصبر الصحابة رضي الله عنهم على أذى المشركين فى مكة :

تتمثل فى كل أحوالهم فى مكة المكرمة قبل الهجرة ، فليس هناك حال للدعوة الإسلامية فى مكة فى ذلك العهد تقريبا إلا وترى صفة الصبر بارزة فيه ، ترى الصبر على الأذى من جهة طاغية ، على جهة مجردة من الحول والقوة ، ترى الصبر على مواقف الاستخفاف والاستفزاز مع القدرة على البطش والتصدى من قبل بعض أفراد الجماعة الإسلامية ، وعلى الرغم من ذلك فقد كانوا يؤمرون بكف أيديهم ، وترى الصبر على الجوع والفاقة ، ترى الصبر على الغربة والتشريد ، ترى الصبر على الخوف والإرجاف .

كل هذه الأحوال المؤلمة كانت على طول ذلك العهد المكى ، الذى قد يكون قياسه بالزمن قصيرا ، ولكن قياسه بقياس معاناة النفس البشرية له ، يعتبر وزنا ثقيلا ومجالا واسعا ، خاصة على نفوس الصفوة البارة من الصحابة وفى مقدمتهم النفس الشريفة الطاهرة نفس رسول الله ﷺ .

نكتفى هنا بهذه الإشارة إلى ما كان يعانيه رسول الله ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم فى مكة ، وسنبسط نماذج من تلك الأحوال فى فصل طبيعة الطريق إن شاء الله تعالى .

ثقل ذلك الأذى على نفس الرسول ﷺ وصحابته :

ولقد عبر عن ثقل ذلك الحمل من الغمز ، واللمز تارة ، والسخرية والاستهزاء تارة أخرى ، والاعتداء على المحارم والأعراض تارة ، والاعتداء على الأجساد بالتعذيب ثم القتل والتشريد تارة ، عبر رسول الهدى ﷺ عن ذلك الحمل الثقيل على النفس والحال بعد أن أدمى سفهاء ثقيف قدميه الشريفتين ، عبر عنه وهو يناجى ربه :

« اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين ، إلى من تكلنى ؟ إلى عدو يتجهمنى ، أم إلى قريب ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك علىَّ غضب فلا أبالى،غير أن عافيتك أوسع لى ، أعوذ بوجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بى غضبك ، أو يحل بى سخطك ، لك العتبى

حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك » الحديث (١) ،وعبر عنه خباب بن الأرت رضي الله عنه بقوله : (أتيت النبى ﷺ وهو متوسد ببردة وهو فى ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة فقلت : ألا تدعو الله لنا ؟) (٢) .

إنه تعبير صادق مغمور بالألم عن وزن ثقيل وتحديات كبرى ،بيد أن ضرب الجماعة والقضاء عليها فى مهدها كان أكبر وأعظم فى ذلك الوزن ، فكان لا بد من الصبر ولابد من التحمل ، وقد كان من ذلك السلف البار ، ولا بد أن يكون من الخلف الحاضر ، والمنتظر إن شاء الله تعالى .

قد كان ذلك التحمل من السلف عندما قال آل ياسر . . . للباطل: لا حتى الموت (٣).

ولقد سارت الأمة الإسلامية على طول أزمانها (٤)، وامتداد أجيالها على هذا النهج الذى هو لا للباطل حتى الموت ، وستقول الأجيال القادمة من هذه الأمة أيضا : لا للباطل وألف لا حتى الموت؛وذلك لأن الباعث الذى دفع آل ياسر إلى قولة « لا » ، ونفخ فيهم قوة التحمل والاستعلاء بالحق على الباطل ، باق ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ،ذلك الباعث هو الإيمان بأن هناك قوة أكبر من هذا الباطل ، وأن هناك يوما يعدل فيه بين الناس ، وأن هناك جنة تنتظر الشهيد وناراً تنتظر كل كافر عنيد .

فلا بد أن يهتم الدعاة بذلك الباعث ، ليوجد الصبر ثم لتبقى الجماعة ، ثم يكون النصر للإسلام والمسلمين ، والله المستعان .

---

(١) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير وحسنه ٢ / ١١٩ فيض القدير ، وهو فى سيرة ابن هشام ١ / ٤٢٠ ، وحسب تقديرى أنه جزء من حديث عائشة فى الصحيحين (هل أتى عليك يوم أشد ؟) لأن فى آخر الحديث الصحيح مجيء جبريل مع ملك الجبال وعرضهما عليه ﷺ إطباق الأخشبين على الكفار وهذا العرض لا يأتى فى العادة إلا بعد الطلب بالدعاء .

(٢) أخرجه البخارى ٥ / ٥٦، ٥٧ ، وفى الفتح ٧ / ١٦٤، ١٦٥ .

(٣) انظر قصة آل ياسر ١ / ٣١٩ ، ٣٢٠ من ابن هشام ، وهى مبسوطة فى رجال حول الرسول لخالد محمد خالد ٢٥٧ ـ ٢٨١ .

(٤) الأمثلة على ذلك كثيرة مثل محنة الحجاج ،ومحنة خلق القرآن . . . وما لاقاه المسلمون من جراء ذلك وهم يقولون : لا للباطل أبدا .

المبحث السادس

فى المعلم السادس من سيرة الرسول

وهو الإبعاد عن ساحة المعركة

مفهوم معلم الإبعاد عن ساحة المعركة :

ولما كان الكتمان، والصبر غير كافيين لضبط أمور الجماعة وصيانة بنائها من الأذى ، لاختلاف الناس فى القدرة على تطبيقهما ، ولاختلاط جوانب الكتمان بجوانب الإعلان عند أفراد الجماعة، ولأن أكثر تعاليم الإسلام لا بد أن تظهر على صاحبها سلوكا وثمرة ، ولاختلاف معادن الناس فى الصبر على القهر والاستفزاز ، لما كان الأمر كذلك ، بادرت القيادة الحكيمة بإيجاد عامل أضبط لصيانة بناء الجماعة ، الذى سيترتب على بقائها ، نصرة الإسلام ونشر تعاليمه ، وعلى هلاكها تجميد أحكام الإسلام ومحق تعاليمه ، كما عبر عن ذلك رسول الله الهدى ﷺ : « اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض » (١) ، فكانت فكرة الإبعاد لأفراد الجماعة عن ساحة المعركة مع العدو بالهجرة هو ذلك العامل الذى استطاعت القيادة بموجبه حفظ براعمها من بطش قريش ، وتجنب الجماعة بعد ذلك عملية محق وهلاك محقق .

أهمية ذلك المعلم فى صيانة بناء الجماعة :

إن فكرة إبعاد من أسلم عن ساحة المواجهة مع طغيان قريش وجبروتها توفيق من الله تعالى لرسوله ﷺ .

وهو توجيه كذلك للسائرين على هذه الطريق يقصدون نصرة الإسلام ، ورفع لوائه ، إن الابتعاد عن ساحة المعركة فى مراحل التكوين التى لا تقوى الجماعة على المواجهة فيها، أمر يوجبه الدين، وتقتضيه حال الجماعة فى مراحلها الأولى . إنك تلمس من قول الرب تعالى شأنه: ﴿ **يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ** (٥٦) ﴾ [العنكبوت] ، أن الابتعاد عن ساحة المعركة فيه صيانة لعبادة الله سبحانه وتوحيده .

وتدرك أن إعطاء المؤمنين ولاءهم لمن كان فى ساحة الكفر مرتبط بهجرته ، وابتعاده

---

(١) سبق تخريجه ص ١٠٩ من هذا الكتاب .

عن الفتنة فى الدين ، لضعفه عن مقاومة ضغط قوى الكفر فى مرحلة التكوين ، ولأن وجوده فى الجماعة زيادة قوة لها قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا** ﴾ [الأنفال : ٧٢] ، وقال تعالى : ﴿ **فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ [النساء : ٨٩] .

وتدرك أن حجة الملائكة على الذين ادعوا الاستضعاف فى الأرض هى : ﴿ **أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا** ﴾ [النساء : ٩٧] .

إن إبعاد الأفراد المستجيبين للدعوة عن ضغط السلطة الجائرة إلى أرض يأمنون فيها على أنفسهم ودعوتهم أمر يجب أخذه بعين الاعتبار من قبل الجماعة الإسلامية ، والدعاة إلى الله تعالى .

الجانب التطبيقى لمعلم الإبعاد فى حياة الرسول ﷺ :

ولقد وضح الجانب التطبيقى لعامل الإبعاد لأفراد الجماعة عن ساحة المعركة فى حياة الرسول ﷺ ، ووضحت كذلك نتائجه الحميدة ، والتى من أعظمها عودة أولئك المهاجرين إلى مكة فاتحين بعد تجمعهم فى مكان آمن ، ذلك المكان هو المدينة المنورة .

بدأ التطبيق العملى فى عامل الإبعاد بالإذن العام إلى كل أفراد الجماعة فى مكة بمغادرتها إلى أرض الحبشة ، لعلم القيادة بأمان ذلك المكان ، وإمكان عيش أولئك الأفراد فيه بسلام وأمن .

قال ابن إسحاق : (فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافية ، بمكان من الله ، ومن عمه أبى طالب ، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء ، قال لهم : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه » . فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب الرسول ﷺ إلى أرض الحبشة) (١) .

ثم الأمر العام لكل من أسلم من خارج مكة بالرجوع إلى أهله ، والبقاء هناك حتى ينصر الله الإسلام ويشتد عوده .

ومن الأمثلة على ذلك أمره عليه السلام لأبى ذر الغفارى والطفيل بن عمرو الدوسى ومن جاءه من الأنصار وغيرهم (٢)، بالعودة إلى بلدانهم حتى يفتح الله على الدعوة .

---

(١) سيرة ابن هشام ١ / ٣٢١ .

(٢) انظر قصة إسلام أبى ذر الغفارى فى : البداية ٣ / ٤٣ ، وإسلام الطفيل فى ابن هشام ١ / ٣٨٢ وإسلام =

عامل الإبعاد أحبط جريمة قتل الرسول ﷺ :

ولقد شملت هذه الأوامر كل المستويات فى الجماعة ، القوى منها والضعيف ، من كان له سند يدفع عنه ، ومن لم يكن له ذلك السند ، قال ابن كثير : (ولم يبق فيها إلا من فتن أو حبس) (١) .

وختمت أخيرًا بالقيادة نفسها ، متمثلة فى شخص رسول الله ﷺ وهجرته إلى المدينة المنورة ، وبهذا الأمر نجت الجماعة بأفرادها ، ونجت بقيادتها من محق وتدمير محقق ، قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾** ﴾ [الأنفال] .

وكان المتفق عليه من مجتمعى الندوة هو القتل ، كما جاء ذلك فى اتفاق (٢) دار الندوة المشئوم واختيارهم من كل قبيلة واحدًا لتنفيذ عملية القتل الفاشلة ، وغلب الله على أمره وهاجر الرسول ﷺ ليواصل المسيرة المباركة ، وقد كانت الغلبة للحق نتيجة لذلك التوجيه الموفق لأفراد الجماعة بالابتعاد عن ساحة المعركة إلى مكان آمن .

وستكون تلك الغلبة إن شاء الله لطلائع البعث الإسلامى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، متى روعى ذلك العامل الصيانى العظيم من قبل قيادة ذلك البعث فى كل زمان ومكان . والله الموفق .

= الدفعة الأولى والثانية من الأنصار ابن هشام ١ / ٤٣١ ـ ٤٣٨ .

(١) البداية ٣ / ١٧٥ .

(٢) انظر : البداية والنهاية لمزيد من التفصيل ٣ / ١٧٥ .

obeikandl.com

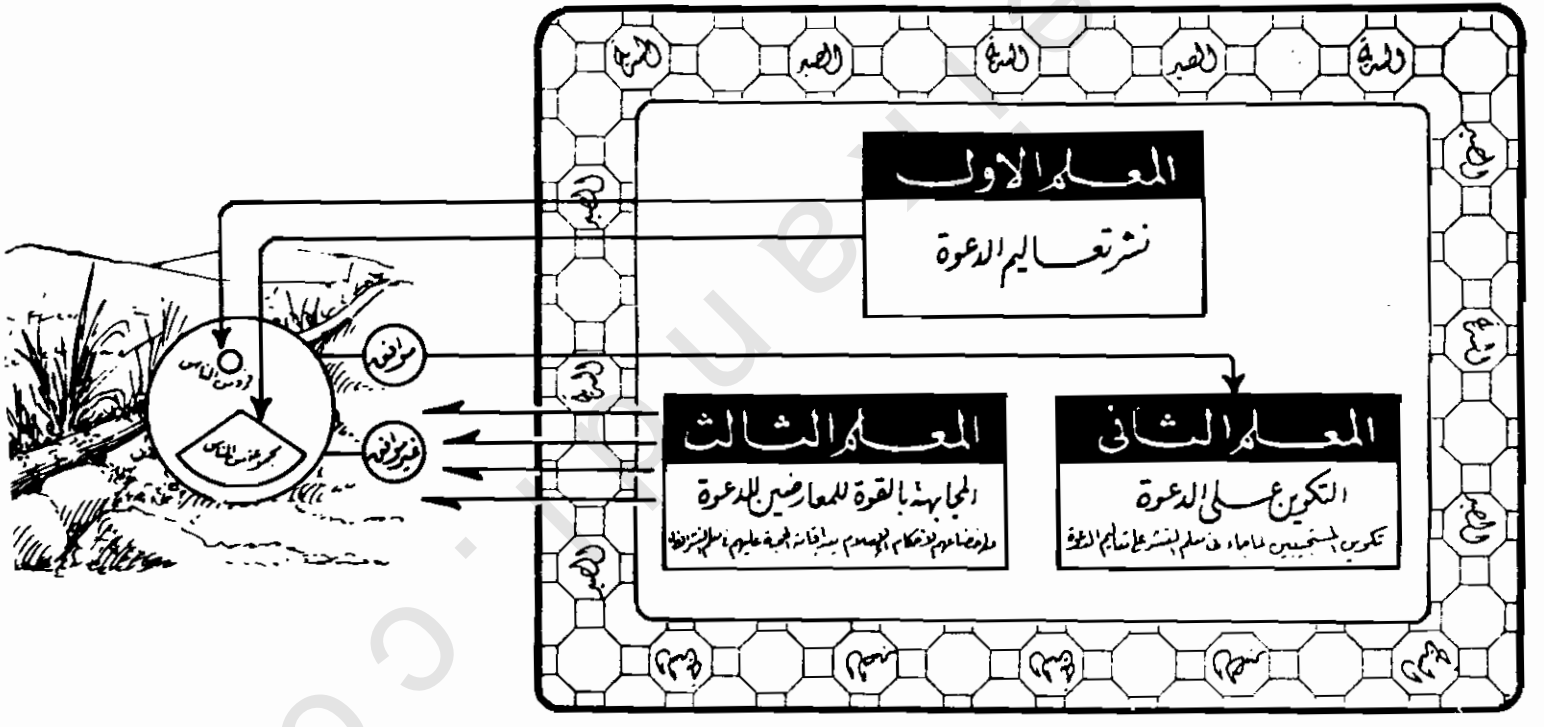

رسم توضيحي للمعالم الثلاثة الأولى من سيرة الرسول ﷺ في بناء الجماعة الأولى

الفصل الرابع
طبيعة الطريق إلى جماعة المسلمين

المبحث الأول
مفهوم طبيعة الطريق
وكونها سنة من سنن الله تعالى

مفهوم تلك الطبيعة :

وبعد أن أوجزت فى توضيح معالم الطريق إلى جماعة المسلمين ، وأنها تبدأ بنشر أفكار الدعوة ثم تكوين المستجيبين لهذه الدعوة على تعاليمها،ثم إخضاع المعارضين لها ، وإجبارهم على التنحى عن طريقها وبعد أن بينت أهم عوامل الصيانة لحركة بناء الجماعة، أشرع فى بيان طبيعة تلك الطريق التى هى ابتلاء واختبار وامتحان ، لأضع السالك لهذه الطريق على بصيرة من أمره ، وعلى وضوح من حقيقة طريقه .

إنها طبيعة قد تكون شاقة على النفس البشرية ، ولكنها تنتهى بالصابر عليها إلى جنة عرضها السموات والأرض ، جنة فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر،جنة تنسى من رزقه الله تعالى دخولها كل مشاق ومتاعب الطريق إليها ، هذه الجنة هى التى سار فى الطريق إليها رسول الله ﷺ بكل وعورتها وعقباتها حتى دخلها ، وعندها أعلن لنا بإيجاز بديع عن طبيعة هذه الطريق بقوله : « حفت الجنة بالمكاره » (١) .

لقد سار رسول الله ﷺ على هذه الطريق فلقى فيها الساخرين المستهزئين ، ولقى عليها المعتدين الآثمين ، رأى على جوانبها السجون والمعتقلات ، رأى فى منعطفاتها أدوات القتل ، والفتك والتعذيب، رأى رفاقه من الرهط الكرام وهم ينشرون بالمناشير فيقسمون قسمين ، رأى الذين تمشط لحومهم بأمشاط الحديد ، رأى الأخدود وهى تتأجج بالنيران على المؤمنين ، رأى المصلوبين ، والمشنوقين ، والموتدين بالأوتاد ، رأى

---

(١) أخرجه مسلم ٤ / ٢١٧٤ ، والترمذى وقال : « حديث حسن صحيح » ٤ / ٦٩٣ ، وأبو داود ٤ / ٢٣٦ ، والدارمى ٢ / ٢٣٩ .

وعلم ، علم يقين كل هذا فعبر عند ذلك التعبير الصادق : « حفت الجنة بالمكاره » مبينا لنا أن هذه هى طبيعة طريق الدعاة إلى الله .

وأكد الرب سبحانه فى أكثر من آية فى كتابه العزيز على تلك الطبيعة لهذه الطريق:

قال تعالى : ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)** ﴾ [البقرة]، ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢)** ﴾ [آل عمران] ، ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ** ﴾ [التوبة : ١٦] ﴿ **أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ [العنكبوت]

وعلى الجانب الآخر من هذه الطريق كان رسول الله ﷺ يشهد مصارع أولئك الساخرين المعتدين ، رأى نهاية كل الطغاة والجبابرة إلى جهنم يسحبون وبئس القرار .

رأى تلك المشاهد المرعبة والعواقب الوخيمة ، ثم أخبرنا عنها ؛ لتطمئن القلوب المؤمنة إلى نهايتها ، ونهاية أعدائها .

ولقد عاش ﷺ كذلك النوع الثانى من طبيعة طريق المسلمين المؤمنين ، جانب ما بعد النصر والتمكين ، جانب بسط النعمة فى المال والأهل والولد ، وهو الجانب الذى يخشى على المؤمنين خطره ،إنه الجانب الذى يرافق الإنسان فيه غرور النصر والتمكين ، وهو الذى يحس الإنسان فيه بثقل اللحم والدم وجاذبية الأرض ، وهو الجانب الذى يجلب الإنسان إلى الدعة والراحة والاطمئنان ومن ثم يسقط فى أثناء الطريق ، يسقط فى متاهات الغرور ، والمتاع المؤقت الزهيد .

لقد عاش رسول الله ﷺ كلا جانبى الطريق ، وذاق طبيعة كل منهما ذاق أشد الأذى من قومه ، فصبر وثبت حتى نهاية الطريق ، ثبت وصبر ، صَبْرَ أولى العزم من الرسل ، وقد تجلى عزمه وإصراره على مبدئه فى قوله لعمه أبى طالب وهو يحاول تثبيطه عن دعوته : « يا عَمِّ والله لو ضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ما تركته » (١) .

وعرضت عليه كل عروض الجانب الثانى من زينة ومتاع ، أخرج الترمذى عن أبى

(١) سيرة ابن هشام ١ / ٢٦٦ .

أمامة عن النبى ﷺ قال : « عرض علىَّ ربى أن يجعل لى بطحاء مكة ذهبا فقلت : لا يارب أشبع يوما وأجوع يوما » (١) .

هكذا أعرض عنه وهو يردد قولته المشهورة: « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة » (٢).

أعرض عنه فعاش فى الكوخ والعريش ، ونام على الأرض والحصير .

أعرض عنه بكبح كل جاذبيته ومغرياته ، كبح النفس عن حب الدعة والمتاع ممتثلا قول الرب سبحانه وتعالى : ﴿ **لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ [طه : ١٣١] .

وكبح الأزواج عن جذبه إلى أحضان ذلك المتاع الزائل ،كبحهن بقول ربه سبحانه: ﴿**إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)** ﴾ [الأحزاب] .

هذه هى طبيعة الطريق إلى بناء جماعة المسلمين ، وذاك هو مفهومها أضعه أمام الدعاة إلى الله ليكونوا على بصيرة من أمرهم ، قبل ولوج تلك الطريق وليبصروا المستجيبين لدعوتهم بهذه الطبيعة ، حتى لا يسقطوا فى أثناء الطريق ، والله المستعان .

أنواع طبيعة الطريق :

وهذه الطبيعة لتلك الطريق تحدث القرآن عنها كثيرا ، ونوعها إلى أنواع كثيرة نستطيع أن نحصرها فى نوعين رئيسين هما: الخير ، والشر . كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً** ﴾ [الأنبياء : ٣٥] .

وقد لخص الأستاذ سيد قطب أهم تلك الأنواع (٣) نختصرها هنا :

١ ـ من الفتنة أن يتعرض المؤمن للأذى من الباطل وأهله ، ثم لا يجد النصير الذى يسانده ويدفع عنه .

٢ ـ ومن الفتنة فتنة الأهل والأحباء الذين يخشى عليهم أن يصيبهم الأذى بسببه ، وهو لا يملك عنهم دفعا وهم يهتفون به ليسالم ، وينادونه باسم الحب والرحم واتقاء الله فى الرحم التى يعرضها للأذى والهلاك .

---

(١) أخرجه الترمذى ٤ / ٥٧٥ ، وقال :« حديث حسن » ، وهو عند أحمد ٥ / ٢٥٤ .

(٢) أخرجه البخارى فى مواطن عدة منها ٨ / ١٠٩ وهو فى الفتح ١١ / ٢٢٩ ، ومسلم ٣ / ١٤٣١ ، وأحمد فى مواطن عدة منها ٢ / ٣٨١ .

(٣) من ظلال القرآن ٢٠ / ١٠٥، ١٠٦ باختصار .

٣ ـ ومنها فتنة إقبال الدنيا على المبطلين ، ورؤية الناس لهم ناجحين ، تهتف الدنيا لهم ،وتصفق لهم الجماهير والمؤمن مهمل منكر لا يحس به أحد ولا يحامى عنه أحد .

٤ ـ ومنها فتنة الغربة فى البيئة ، والاستيحاش بالعقيدة ، حين ينظر المؤمن فيرى كل ما حوله وكل من حوله غارقا فى دنيا الضلالة ، وهو فى طريق غريب .

٥ ـ ومنها فتنة أن يجد المؤمن أمما ودولا غارقة فى الرذيلة ،وهى مع ذلك راقية متحضرة فى حياتها ومجتمعها ، ويجدها غنية فى الوقت الذى تشاق الله تعالى وتحارب دينه .

٦ ـ ومنها فتنة الشهرة وجاذبية الأرض وثقلة اللحم والدم ، وهى الطامة لأنها مؤيدة بطبع الإنسان وفطرته .

٧ ـ ومنها فتنة إبطاء النصر وطول الطريق .

٨ ـ ومنها فتنة الغرور ، والاتكال على النفس بعد النصر .

هذه الأنواع كلها تعرض للمؤمن فى هذه الطريق ، والفائز هو الذى يستطيع أن يتجاوزها وهو فى طريقه إلى الله تعالى وجناته .

أهداف هذه الطبيعة :

فصل القرآن الكريم كثيرا (١) من الأهداف من وراء هذه الطبيعة لطريق الدعوة الإسلامية ،ولكنها كلها تصب فى هدف واحد هو الوصول إلى الإنسان الأحسن عملا ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴿٧﴾ ﴾ [الكهف] ، ﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ [الملك : ٢] .

وبما أن حركات الإنسان وأفعاله ذات علاقة أصيلة فى تسيير دولاب الحركة البشرية ـ على هذه الأرض ـ من حيث السلب والإيجاب ، تصلح حركة ذلك الدولاب بصلاح حركة الإنسان ، وتفسد حركته بفساد حركة ذلك الإنسان وأفعاله ، قال تعالى : ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم]، ﴿ **وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ** ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأعراف].

---

(١) انظر الآيات التالية أرقامها وسورها فى تفصيل أهداف هذه الطبيعة :البقرة الآيتان:٥٥ ، ١٢٤ ، آل عمران الآيات: ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٨٦ . سورة الأعراف الآيتان : ١٦٣ ، ١٦٨ . المائدة آية ٩٤ . الأنفال آية : ١٧ . الأنعام آية : ١٦٥ . يونس آية : ٣٠ . النمل آية : ٤٠ . الأحزاب آية : ١١ . الفجر آية : ١٥ . القلم آية : ١٧ . الإنسان آية : ٢.

وللوصول إلى حركة وأفعال الإنسان الصالحة التى تصلح بموجبها حركة دولاب الحياة البشرية كلها ، جعل الله تعالى شأنه محكا لتمييز الطيب من الخبيث من تلك الحركات والأفعال ، وأرشد سبحانه رسله وأنبياءه إلى ذلك المحك ، ليقوموا بموجبه بذلك الفرز والتمحيص ، وليسنوه بعد ذلك للسائرين على طريقهم ، والمتبعين لخطاهم من البشر ، ليصلوا إلى المعادن الصالحة من بنى الإنسان ، الذين سيكون على عاتقهم تسيير دولاب الحياة البشرية على هذه الأرض ، ذلك المحك هو الابتلاء والاختبار والامتحان ، الذى جعلناه طبيعة طريق الدعوة إلى الله تعالى .

فالهدف إذن من طبيعة هذه الطريق هو الوصول إلى الصالح من الناس من خلال أفعاله ، لتصلح بصلاحه الحركة البشرية على هذه الأرض .

ولتقريب ذلك المعنى إلى الذهن نأخذ عليه مثالا من قصة طالوت مع الملأ من بنى إسرائيل ، قال تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلاَئِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ** ﴾ [البقرة] .

وشَاهِدُنا من هذه القصة العظيمة يبدأ من قوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ** ﴾ ، حيث قرر سيدنا طالوت وضع أولئك الجنود على المحك مرة بعد مرة، ليصل

بموجبه إلى المعدن الذى يمكن أن يدخل به المعركة فلا يتخاذل ،ولا يتراجع طالوت عليه السلام بعد أن أدرك بعلمه الذى هو الصفة الأولى من مؤهلات اختياره قائدا لذلك الجيش قال تعالى : ﴿ **وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ** ﴾ ـ ضخامة المهمة الملقاة على عاتق جيشه ، وأن هذه المهمة تتطلب معدنا من الرجال تصمد إرادتهم للحرمان ، وتستعلى على الضرورات وتصبر على المتاعب والمشاق » .

وأدرك أن الطريق إلى تلك المعادن أن يبتليهم ويختبرهم ليميز منهم الخبيث والهش، وليبعد بذرة الضعف والخبال ، وينحى ذوى الهزيمة والخذلان ، ليميزهم ويبعدهم عن اللبنات المؤمنة الموقنة ، عن المعادن الصابرة الثابتة ، المستعلية على كل قوى الأرض وجبروت أصحابها .

ولقد كانت لطالوت النتيجة التى كان يرجوها ، لقد غربل الجيش بالعطش فخرج الذين لا يمكن أن يصبروا على شهوات ذواتهم وهم الكثير قال تعالى : ﴿ **فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ** ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

ثم غربله مرة ثانية فى صورة ذلك القليل الذى لم يشرب ، وصبر على رغبات نفسه ومتطلبات شهوته ،غربل تلك الفئة القليلة،ولم يقل:لم يبق من الجيش إلا القليل فأقف عن الغربلة حتى لا ينفض من حولى ، لم يقل ذلك ومضى فى غربلته ؛ لأن الميزان عنده ليست الكثرة ولكن الميزان وجود الإرادة الصامدة ولو فى شخص واحد .

ولقد صدق ميزان طالوت ، وتقررت نهاية المعركة برجل واحد ، قال تعالى : ﴿**وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوت** ﴾ [البقرة : ٢٥١] .

غربلها بتضخيم قوة جالوت ، وتقليل قوة الفئة المؤمنة ، فخرج منها الذين قالوا : لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ، ولم يثبت إلا الذين يظنون أنهم ملاقوا الله واتحدوا مع طالوت فى الميزان وأيدتهم عليه السماء فى ثورة قاعدة عامة تتكرر كلما توافرت لوازمها .

تلك القاعدة هى كما قال تعالى : ﴿ **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** (٢٤٩) ﴾ [البقرة] .

تلك القلة المؤمنة هى التى برزت لجالوت وجنوده . قال تعالى : ﴿ **فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوت** ﴾ [البقرة : ٢٥١] .

والعبرة التى تهمنا هنا من هذه القصة ونسجلها من بين عبرها الكثيرة هى :

أ ـ أن طالوت لم يغتر بحماس الكثرة . وهو يسمع دوى هتافها لنبيها : ﴿ **ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ .

ب ـ ولم يكتف بمحك واحد لنفوس جيشه بل عرضهم لتجارب متعددة حتى توصل إلى المعدن الذى يريده غير مكترث بالعدد والكثرة . وهى عبرة على الدعاة أن يقفوا بأفرادهم عندها كثيرا وألا يدخلوا بهم مهمة قبل أن يمتحنوهم ويختبروهم بمواقف مشابهة لمواقف تلك المهمة ، كالجندى يتدرب على السلاح قبل استعماله فى المعركة .

وخلاصة هذه النقطة :

أ ـ أن دولاب حركة هذه البشرية على هذه الأرض لا يمكن أن يسير السير الذى يريده الله تعالى له إلا أن تتسلمه أيد تربت التربية التى يريدها الله .

ب ـ ولا يمكن الوصول إلى معرفة تلك الأيدى الصالحة إلا بعد تجارب فينكشف بموجبها الصالح من الطالح .

وتلك التجارب هى التى نسميها طبيعة الطريق .

والأيدى الصالحة هى كما قررنا هدف هذه الطبيعة المباركة .

طبيعة الطريق سنة من سنن الله :

وجعل الله تعالى شأنه طبيعة هذه الطريق سنة من سننه ، يخضع لها أصل خلق الإنسان ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا** ﴿٢﴾ ﴾ [الإنسان] ، ﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا** ﴾ [الملك : ٢] ، ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴿٧﴾ ﴾ [الكهف] .

فالابتلاء فى الآيات معناه الاختبار والامتحان لأفعال الإنسان على هذه الأرض ، وتميز الحسن منها عن الخبيث ، والجماعة الإسلامية قيادة وأفرادا جزء من ذلك الإنسان تخضع لما يخضع له أصلها .

فتنطبق عليها سنة الله تعالى شأنه فى اختبار أعمالها ، وتمييز صفها ، وإبعاد الهش من لبناتها ، قال تعالى : ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ** ﴿١٥٥﴾ ﴾ [البقرة] ، ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ**

﴿ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾ [محمد : ٣١] ، ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ [الأنعام : ١٦٥] ، ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الأحزاب] .

وكما أنها تنطبق على عامة المسلمين فهى أشد انطباقًا على صفوة الإنسانية من الأنبياء والرسل .

ثم على الذين يلونهم فى التقوى والإيمان .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ... ﴾ [البقرة : ١٢٤] .

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ﴾ [النمل : ٤٠] .

وروى الترمذى وغيره من حديث سعد بن أبى وقاص قلت : يا رسول الله ، أى الناس أشد بلاء ؟ قال :« الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل » (١) . . . الحديث .

وعليه ، فالابتلاء سنة من سنن الله سبحانه وتعالى لا مفر منها لكل إنسان خلق على هذه الأرض وعلى الأخص دعاة الحق من ذلك الإنسان ، فهم بمجرد نطقهم بالحق يطالبهم الرب سبحانه وتعالى بالدليل على صدق دعواهم ، قال تعالى : ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت]

(١) أخرجه الترمذى ٤/ ٦٠١ وقال عنه : « حديث حسن صحيح » وابن ماجه ٢ / ١٤٣٤ ، والدارمى ٢ / ٣٢٠ .

obeikandl.com

المبحث الثانى
نماذج من طبيعة الطريق

أولا : نماذج ما قبل البعثة النبوية :

وكما أن طبيعة الطريق سنة يخضع الإنسان لأحكامها ، والجماعة الإسلامية تتكون من ذلك الإنسان ، فنماذج هذه الطريق تبدأ من اللحظات الأولى لهذا الإنسان :

النموذج الأول : قصة ابنى آدم وما قرباه من قربان على هذه الأرض :

فالله سبحانه يروى لنا قصة من أول قصص الصراع بين الحق والباطل متمثلة فى صورة ابنى ادم وما قرباه من قربان .

قال تعالى : ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠)** ﴾ [المائدة] .

من هناك من لدن سيدنا آدم عليه السلام بدأ الصراع بين الحق والباطل ، وطويت صورة من صور الحق على هذه الأرض لتعود إلى الجنة مرة ثانية منتصرة على الباطل ، الذى كان سببا فى إخراجها منها .

فما أعظمها وأجلها من طبيعة لهذه الطريق،وعظمتها تكمن فى سرعة الحركة فيها ، إنها سرعة تفوق كل سرعة تعارف عليها البشر ، سرعة تقطع المسافة على طولها بسرعة أسرع من لمح البصر .

إن طول هذه الطريق هى المسافة بين الأرض والجنة . والوقت الذى تستغرقه هذه الرحلة بمقياس سرعة هذه الطريق ، هو لحظات إزهاق الروح فقط ، والذى يوضح هذه السرعة قصة الرجل المؤمن فى النموذج التالى :

النموذج الثانى : قصة المؤمن حبيب النجار :

وخير شاهد على سرعة الانتقال من أول هذه الطريق على هذه الأرض ، إلى آخر

هذه الطريق وهى الجنة ، نلمسه من برقية بعث بها إلينا مؤمن [1] بعد أن قطع هذه الطريق فى أقل من لمح البصر كما بين ذلك قوله تعالى: ﴿ **إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ** (٢٥) **قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ** (٢٦) **بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ** (٢٧) ﴾ [يس]

فآخر كلمة قالها على الأرض هى ﴿ **فَاسْمَعُونِ** ﴾ بعدها مباشرة ﴿**قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ** ﴾ وهى نهاية الطريق ، فالفترة التى استغرقتها رحلة ذلك المؤمن ، هى اللحظة ما بين نطقه بكلمة ﴿ **فَاسْمَعُونِ** ﴾ وكلمة ﴿ **قِيلَ** ﴾. كما يصور ذلك النص الربانى من واقع القصة ولحظاتها ، وذهبت تلك اللحظة وصارت عبرة تتلوها الأجيال ويرددها الكون نموذجا من نماذج الطريق .

ومثل هذا ما وقع فى عهد رسول الله ﷺ من ذلك الصحابى الذى كان فى يده تمرات فرماها وهو يقول: إنها حياة طويلة ، فقاتل فقتل [2] ، فإذا هو فى الجنة . فيا لها من حلاوة لا يتذوقها إلا من سار على هذه الطريق ـ طريق الدعوة إلى الله ـ وياله من إكرام من رب العالمين للسائرين على هذه الطريق ، إكرام فى الدنيا بأن تسجل أسماؤهم فى سجل الخالدين ، وإكرام فى الآخرة بأن يعيشوا فى رحاب رب العالمين : ﴿ **قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ** (٢٦) **بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ** (٢٧) ﴾ [يس] .

يالها من طبيعة حلوة المذاق فى حقيقتها ، شديدة الوقع على النفس الإنسانية فى ظاهرها ، عظيمة الوزن بمقياس رب العالمين لمن صبر عليها ، وسيئة الوطء بالمقاييس الأرضية الناقصة ، والطبائع البشرية القاصرة .

النموذج الثالث : قصة أصحاب الأخدود :

ومن مشهد حبيب النجار إلى نجران حيث جرى مشهد من مشاهد هذه الطريق . إنه مشهد قتل أصحاب الأخدود ، بالنار ذات الوقود ، وهى القصة التى أخذت من القرآن الكريم سورة كاملة سردا وتعقيبا ، ثم جاءت السنة المشرفة تبيينا وتفصيلا .

قال تعالى : ﴿ **وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ** (١) **وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ** (٢) **وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ** (٣) **قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ** (٤) **النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ** (٥) **إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ** (٦) **وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ**

---

(١) المؤمن ، قال المفسرون : هو حبيب بن مرى النجار (القرطبى ١٥ / ١٧ والجلالين ص ٢٧٠) .

(٢) يشير إلى الحديث الذى رواه أحمد فى مسنده ٣/ ١٣٦، ١٣٧ فى قصة عمير بن الحمام بن الجموح رضي الله عنه، وهى فى المستدرك ٣ / ٤٢٦ ، وأخرجه مسلم مختصرا ٦ / ٤٤، ٤٥ .

﴿بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج] .

وعن صهيب أن رسول الله ﷺ قال: « كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر، فلما كبر قال للملك: إنى كبرت فابعث إلىَّ غلاما أعلمه السحر، فبعث إليه غلاما يعلمه، فكان فى طريقه إذا سلك راهب فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه ، إلى أن قال . . . فقال له الملك : من رد عليك بصرك ؟ قال : ربى ، قال: ولك رب غيرى ؟ قال : ربى وربك الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام ، فجىء بالغلام فقال له الملك : أى بنى ، قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل ، فقال : إنى لا أشفى أحدا ، إنما يشفى الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب ، فجىء بالراهب فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى ، فدعا بالمنشار فوضع المنشار فى مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه ، ثم جىء بجليس الملك فقيل له : ارجع عن دينك فأبى ، فوضع المنشار فى مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه ، ثم جىء بالغلام فقيل له : ارجع عن دينك فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا به إلى جبل كذا كذا ، فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه ، فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشى إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال : كفانيهم الله تعالى . . . فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه ، فذهبوا به فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشى إلى الملك . . . فقال للملك : إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به ، قال :وما هو ؟ قال : تجمع الناس فى صعيد واحد وتصلبنى على جذع ، ثم خذ سهما من كنانتى، ثم ضع السهم فى كبد القوس، ثم قل : بسم الله رب الغلام ، ثم ارمنى ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنى ، فجمع الناس . . . ثم قال : بسم الله رب الغلام، ثم رماه فوقع السهم فى صدغه ، فوضع يده فى صدغه فى موضع السهم فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام . . . فأتى الملك فقيل له : أرأيت ما كنت تحذر ؟ قد والله نزل بك حذرك ، قد آمن الناس ، فأمر بالأخدود فى أفواه السكك فخدت وأضرم النيران . وقال : من لم يرجع عن دينه فاحملوه فيها ، أو قيل له : اقتحم ، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبى لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام: يا أمه اصبرى ، فإنك على الحق » (١) .

وقد استوقفت هذه القصة الأستاذ سيد قطب فجعلها معلما من « معالم فى الطريق»

(١) أخرجه مسلم ٤ / ٢٢٩٩ ـ ٢٣٠١ وهو عند أحمد ٦ / ١٦ ـ ١٨ .

نلخص بعضه هنا : « إن قصة الأخدود ـ كما وردت فى سورة البروج ـ حقيقة بأن يتأملها المؤمنون الداعوان إلى الله ، إنها قصة فئة آمنت بربها واستعلنت ذلك الإيمان واستعلت به ، ثم تعرضت للفتنة من أعداء جبارين مستهترين بحق الإنسان فى حرية الاعتقاد بالحق .

لقد تحررت هذه القلوب من عبوديتها للحياة فلم يستذلها حب البقاء .

وفى مقابل هذه القلوب المؤمنة الخيرة كانت هناك جبلات شريدة مجرمة تجلس على النار متلهية بمنظر النار وهى تتوقد بالأجساد المؤمنة الطاهرة » .

هذه هى صورة المشهد كما يصورها سيد قطب ، ثم يعالج نقطة هامة فى هذه الطريق ، وهى أن ظاهر تلك النهاية المؤلمة على هذه الطريق يحيك فى الصدر شيئا بالمقاييس البشرية ، ولكن القرآن الكريم يبدد هذه النظرة ويمسح ما يحيك فى النفس ، بتعليم المؤمنين شيئا آخر ، ويكشف لهم عن حقيقة أخرى ، ويبصرهم بطبيعة القيم التى يزنون بها ، وبمجال المعركة التى يخوضونها ، إن الحياة وسائر ما يلابسها من لذائذ وآلام ليست هى القيمة الكبرى فى الميزان الإلهى ، إن القيمة الكبرى فى ميزان الله هى قيمة العقيدة ، وانتصار الروح على المادة ، ولقد كان ذلك الانتصار لأصحاب الأخدود .

ثم يقرر سيد نقطة أخرى وهى : أن الناس جميعا يموتون وتختلف الأسباب ولكن الناس جميعا لا ينتصرون هذا الانتصار .

ثم يقرر حقيقة أخرى من نفس القصة وهى : أنه كان فى استطاعة تلك الفئة المؤمنة أن تنجو بحياتها مقابل الهزيمة لإيمانها ، ثم يتساءل سيد ولكنها كم كانت تخسر هى نفسها وهى تقتل هذا المعنى الكبير ؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر بقتل ذلك المعنى الكبير ؟ معنى قتل الإيمان مقابل الحياة الهزيلة المؤقتة .

ثم يواصل سيد استنباطاته من قصة أصحاب الأخدود ، لينير بها حلكة تلك الطريق ، طريق الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ، يقرر سيد أن قصة أصحاب الأخدود أخذ للمؤمنين ، وترك للمجرمين ، وفى أكثر قصص صراع الحق مع الباطل فى القرآن أخذ للمكذبين ، ونجاة للمؤمنين ، ويعلل ذلك بأن من حكمة الله تعالى شأنه أن يستقر فى حس المؤمنين فى كل زمان ومكان أنهم قد يدعون إلى نهاية كهذه النهاية ـ نهاية أخذ المؤمنين وترك الكافرين .

ثم يقرر واجب أولئك المؤمنين فى مثل ذلك الموقف بقوله : « إن عليهم أن يؤدوا واجبهم ثم يذهبوا ، وواجبهم أن يختاروا الله وأن يؤثروا العقيدة على الحياة ، وأن يستعلوا بالإيمان على الفتنة وأن يصدقوا الله فى العمل والنية . (ثم يعلل) إنهم أجراء عند الله أينما وحيثما وكيفما أرادهم أن يعملوا عملوا ، وقبضوا الأجر المعلوم ، وليس لهم ولا عليهم أن تتجه الدعوة إلى أى مصير ،فذلك شأن صاحب الأمر لا شأن الأجير » (١).

هذا هو المشهد والنموذج الذى دارت وقائعه على أرض نجران . والذى ذهب ضحيته فئة آمنت بربها وزادها الله هدى .

ولقد آثرت الأستاذ سيد قطب على نفسى فى نقل وقائع ذلك المشهد الرهيب لاتساع باعه فى هذا المجال ولولُوجِهِ هذه الطريق طريق تلك الفئة المباركة وتذوقه طعمها بجسمه النحيل ومشاهدته لآثارها بحسه المرهف ، وفَوزه أخيرا بالوصول إلى نهايتها وتشرفه بمرافقة الخالدين : ﴿ **مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ** ﴾ [النساء : ٦٩] فى رحاب رب العالمين .

وهو مشهد من آلاف المشاهد على هذه الطريق على امتداد الأزمان أختم به زمن ما قبل البعثة المحمدية العظيمة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

ثانيا : نماذج من زمن البعثة النبوية :

بعد الوقوف على شىء من مشاهد طبيعة الدعوة إلى الله تعالى فى زمن ما قبل البعثة المحمدية أشرع فى التقاط صور جديدة من طريق الدعوة إلى الله تعالى بعد بعثة الرسول محمد ﷺ .

١ ـ نماذج من حياة الرسول ﷺ :

نماذج من أذى المشركين له ﷺ :

وأبدأ بأطهر وأشرف وأزكى إنسان دب على هذه الأرض ، وسار على طريق الدعوة إلى الله تعالى،فتذوق مرارتها وحلاوتها،ذلك الإنسان هو رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ ،لتهون متاعب هذه الطريق على الدعاة إلى الله ، وتستريح إلى طبيعتها نفوسهم ، وتطمئن بأحقيتها أرواحهم وأفئدتهم .

---

(١) معالم فى الطريق للأستاذ سيد قطب ص ١٧٦ .

إن الأذى الذى تعرض له رسول الله ﷺ من أقذع أنواع السباب ، وتحمله ﷺ كل ذلك ، لخير مضمد للمهتوكة أعراضهم ، وأنسابهم على هذه الطريق ، طريق الدعوة إلى الله تعالى .

إن التآمر على قتل محمد بن عبد الله وهو أكرم إنسان على الله تعالى ، لخير بلسم تشفى وتطمئن به القلوب والأرواح المهددة بالقتل والشنق بين لحظة وأخرى .

وإن التجرؤ بوضع الروث وسلى [1] الماشية على رأس محمد بن عبد الله ﷺ وهو أعظم رأس على الإطلاق ، لخير مسكن لأعصاب الدعاة إلى الله وهى تتلقى كل أنواع الأذى فى كل زمان ومكان .

وإن التطاول على محمد بن عبد الله ﷺ برميه بالحجارة حتى تدمى عقباه وجبهته وتكسر رباعيته ويشج رأسه الشريف وهو صابر على ذلك كله ، لخير عامل يدفع السائرين على هذه الطريق إلى الأمام ، وينزل عليهم السكينة والطمأنينة والصبر على كل متاعب هذه الطريق ومشاقها وعقباتها .

ولقد سجل لنا القرآن ومصادر السيرة المطهرة كل تلك المهازل وأنواع الأذى التى تعرض لها رسول الله ﷺ ، ففى جانب الأذى قال تعالى : ﴿ **وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾** ﴾ [ص] ، ﴿**أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾** ﴾ [القمر] ، ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾** ﴾ [الأنفال] .

وأخرج أحمد عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد أوذيت فى الله وما يؤذى أحد ، وأخفت فى الله وما يخاف أحد ، ولقد أتت علىَّ ثلاثون من بين يوم وليلة وما لىَّ ولبلال ما يأكله ذو كبد إلا ما يوارى إبط بلال » [2].

وأخرج أيضا عن ربيعة : فقال رأيت رسول الله ﷺ بصر عينى بسوق ذى المجاز

---

(١) قال فى النهاية ٢ / ٣٩٦ : السلى : الجلد الرقيق الذى يخرج فيه الولد من بطن أمه ملفوفا فيه .
وذكر : (أن المشركين جاءوا بسلى جزور فطرحوه على النبى ﷺ وهو يصلى) .

(٢) أخرجه الترمذى ٤ / ٦٢٥ ، وقال الترمذى : « حسن غريب » ، وأخرجه ابن ماجه ١ / ٥٤، وقال عقب الحديث : أخرجه الترمذى فى باب الزهد وقال : حديث حسن صحيح ولم أطلع عليه فى كتاب الزهد والذى ذكره الترمذى عند هذا الحديث فى كتاب القيامة حسن غريب ،وأيد ابن كثير فى البداية والنهاية ٣ / ٤٧ أنه حديث حسن صحيح .

يقول : « يا أيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا » ، ويدخل فى فجاجها والناس متقصفون عليه (١) . فما رأيت أحدا يقول شيئا ، وهو لا يسكت يقول : « يا أيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا » ، إلا أنه وراءه رجل أحول وضىء الوجه ذا غديرتين يقول : إنه صابئ كاذب ، فقلت : من هذا ؟ فقالوا : محمد بن عبد الله وهو يذكر النبوة ، قلت : من هذا الذى يكذبه قالوا : عمه أبو لهب » (٢) .

أخرج أيضا عن ربيعة قال : إنى لمع أبى رجل شاب أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يتبع القبائل ووراءه رجل أحول وضىء ذو جمة (٣) يقف رسول الله ﷺ على القبيلة ويقول : « يا بنى فلان ، إنى رسول الله إليكم ، آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن تصدقونى حتى أنفذ عن الله ما بعثنى به » ، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من مقالته قال الآخر من خلفه : يا بنى فلان ، إن هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تسمعوا له ولا تتبعوه ، فقلت لأبى : من هذا ؟ قال : عمه أبو لهب (٤) .

وأخرج البخارى رحمه الله عن عروة رضي الله عنه أنه قال: سألت ابن عمرو بن العاص : أخبرنى بأشد شىء صنعه المشركون بالنبى ﷺ، قال: بينما النبى ﷺ يصلى فى حجر الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فوضع ثوبه فى عنقه فخنقه خنقا شديدًا ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه ودفعه عن النبى ﷺ قال : ﴿ **أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّه ...** ﴾ [غافر : ٢٨] (٥).

وأخرج أبو داود وغيره عن جابر رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه بالموقف يقول : « ألا رجل يحملنى إلى قومه ؟ فإن قريشا منعونى أن أبلغ كلام ربى » (٦).

وأخرج البخارى ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما : لما نزلت الآية : ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤)** ﴾ [الشعراء] صعد النبى ﷺ على الصفا ، فجعل ينادى : « يا بنى فهر ،

---

(١) متقصفون أى متزاحمون (النهاية ٤ / ٧٣) .

(٢) أخرجه أحمد ٣ / ٤٩٢ .

(٣) الجمة : من شعر الرأس ما سقط على المنكبين (النهاية ١ / ٣٠٠) .

(٤) أحمد ٣ / ٤٩٢ .

(٥) أخرجه البخارى ٥ / ٥٨ ، وهو فى الفتح ٧ / ١٦٥ .

(٦) أخرجه أبو داود ٤/ ٢٣٤ ، والترمذى ٥ / ١٨٤ ، وقال : حديث حسن صحيح ،وابن ماجه ١ / ٧٣ .

يا بنى عدى ـ لبطون قريش ـ حتى اجتمعوا ، فجعل الذى لا يستطيع أن يخرج يرسل رسولا لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش فقال النبى ﷺ : « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟» قالوا : ما جربنا عليك كذبا ، قال : « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » ، فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ، فنزل قوله تعالى : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ الحديث [١] .

وأخرج أحمد عن ربيعة بن عباد قال : رأيت النبى ﷺ وهو يدعو الناس إلى الإسلام بذى المجاز وخلفه رجل أحول يقول: لا يغلبنكم هذا عن دينكم ودين آبائكم . قلت لأبى وأنا غلام: من هذا الأحول الذى يمشى خلفه. قال : هذا عمه أبو لهب [٢] .

وأخرج البخارى ومسلم عن ابن مسعود: أن النبى ﷺ كان يصلى عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس إذ قال بعضهم لبعض : أيكم يجىء بسلى جزور بنى فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد ؟ فانبعث أشقى القوم فجاء به ، فنظر حتى سجد النبى ﷺ وضعه على ظهره بين كتفيه ،وأنا أنظر لا أغير شيئا ، ولو كان لى منعه قال : فجعلوا يضحكون ويميل بعضهم على بعض ، ورسول الله ﷺ ساجد لا يرفع رأسه ، حتى جاءته فاطمة فطرحت عن ظهره ،فرفع رأسه ثم قال : « اللهم عليك بقريش » ثلاث مرات ، فشق عليهم إذ دعا عليهم . قال : وكانوا يرون أن الدعوة فى ذلك البلد مستجابة ، ثم سَمَّى: « اللهم عليك بأبى جهل ، وعليك بعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وأمية بن خلف ، وعقبة بن أبى معيط » ، وعد السابع فلم يحفظه . قال : فو الذى نفسى بيده لقد رأيت الذين عد رسول الله ﷺ صرعى فى القليب قليب بدر [٣] .

وأخرج البخارى وغيره عن عائشة رضي الله عنها زوج النبى ﷺ أنها قالت للنبى ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ قال : لقد لقيت من قومك مالقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فنادانى فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت

---

(١) سبق تخريجه ص ١١٦ من هذا الكتاب .

(٢) مسند أحمد ٣ / ٤٩٢ وقد سبق نحوه .

(٣) أخرجه البخارى ١ / ١٧٤ ، ومسلم ٣ / ١٤١٨ .

فيهم ، فنادانى ملك الجبال فسلم على ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ؟ » فقال النبى ﷺ : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا » (١) .

وأخرج أبو نعيم فى الدلائل تتمة هذه القصة عن عروة بن الزبير رضي الله عنه قال : ومات أبو طالب وازداد من البلاء على رسول الله ﷺ شدة ، فعمد إلى ثقيف يرجو أن يؤوه ، وينصروه فوجد ثلاثة نفر منهم سادة ثقيف وهم إخوة : عبد ياليل بن عمرو ، وخبيب بن عمرو ، ومسعود بن عمرو ،فعرض عليهم نفسه ، وشكا إليهم البلاء ، وما انتهك قومه منه فقال أحدهم : أنا أسرق ثياب الكعبة إن كان الله بعثك بشىء قط ؟

وقال الآخر : والله لا أكلمك بعد مجلسك هذا كلمة واحدة أبداً لئن كنت رسولا لأنت أعظم شرفا وحقا من أن أكلمك .

وقال الآخر : أعجز الله أن يرسل غيرك ؟

وأفشوا ذلك فى ثقيف الذى قال لهم ، واجتمعوا يستهزئون برسول الله ﷺ وقعدوا له صفين على طريقه ، فأخذوا بأيديهم الحجارة فجعل لا يرفع رجله ولا يضعها إلا رضخوها بالحجارة وهم فى ذلك يستهزئون ويسخرون .

فلما خلص من صفيهم وقدماه تسيلان الدماء عمد إلى حائط من كرومهم ، فأتى ظل حبلة من الكرم ،فجلس فى أصلها مكروبا موجعا تسيل قدماه الدماء،فإذا فى الكرم عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، فلما أبصرهما كره أن يأتيهما لما يعلم من عداوتهما لله ولرسوله وبه الذى به. فأرسلا إليه غلامهما عداسا بعنب وهو نصرانى من أهل نينوى .

فلما أتاه وضع العنب بين يديه فقال رسول الله ﷺ:« بسم الله » فعجب عداس ، فقال له رسول الله ﷺ : « من أى أرض أنت يا عداس ؟ » قال : من أهل نينوى . فقال النبى ﷺ : « من أهل مدينة الرجل الصالح يونس بن متى ؟ » فقال عداس : وما يدريك من يونس بن متى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ من شأن يونس ما عرف ، وكان رسول الله ﷺ لا يحقر أحدا يبلغه رسالات الله تعالى . قال : يا رسول الله ، أخبرنى خبر يونس بن متى ، فلما أخبره رسول الله ﷺ من شأن يونس بن متى ما أوحى إليه من شأنه خر ساجداً لرسول الله ﷺ ثم جعل يقبل قدميه وهما تسيلان الدماء .

---

(١) أخرجه البخارى ٤/١٣٩، ١٤٠ ،ومسلم ٣/١٤١٨، والنسائى ١/ ٥١ ، وأحمد فى مواضع عدة منها ٦ / ٢٨ .

فلما أبصر عتبة وأخوه شيبة ما فعل غلامهما شكا ، فلما أتاهما قالا له : ما شأنك سجدت لمحمد وقبلت قدميه ولم نرك فعلت هذا بأحد منا ، قال : هذا رجل صالح حدثنى عن أشياء عرفتها من شأن رسول بعثه الله تعالى إلينا ، يدعى يونس بن متى ، فأخبرنى أنه رسول الله فضحكا وقالا : لا يفتنك عن نصرانيتك ، إنه رجل يخدع ، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى مكة (١) .

فمن هذه القصص من الأذى الرهيب لرسول الله ﷺ ندرك شيئا من طبيعة طريق الدعوة إلى الله ، وأنها طبيعة عامة بالرسل وأتباعهم وأنه ليس أمامهم غير الاستمرار فى الدعوة حتى ينصرها الله أو يموتوا فى سبيلها .

نماذج من إغراء المشركين لرسول الله ﷺ :

بعد أن عجزت قريش عن إيقاف المد الإسلامى بأساليب التنكيل والتعذيب سلكت أسلوب الإغراء قال تعالى : ﴿ **وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣)** ﴾ [الإسراء] .

قال ابن عباس فى رواية عطاء : نزلت فى وفد ثقيف أتوا النبى ﷺ فسألوه شططا متعنا بآلهتنا سنة حتى نأخذ ما يهوى لنا ، فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا ، وحرم وادينا كما حرمت مكة حتى تعرف العرب فضلنا عليهم فَهمَّ رسول الله ﷺ أن يعطيهم ذلك فنزلت هذه الآيه (٢) .

وقال السيوطى فى الدر المنثور عن ابن عباس قال : إن أمية بن خلف وأبا جهل بن هشام ورجالا من قريش أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : تعالى فاستلم آلهتنا وندخل معك فى دينك وكان رسول الله ﷺ قد اشتد عليه فراقه قومه ويحب إسلامهم فَرَقَّ لهم ، أنزل الله تعالى الآية (٣) .

وذكر السيوطى عند قوله تعالى : ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢)** ...﴾ .

قال ابن عباس : إن قريشا دعت رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالا فيكون أغنى

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة ص ١٠٣ ، وقال الألبانى فى تعليقه على فقه السيرة للغزالى ص ١٣٢ : أخرج هذه القصة ابن إسحاق بسند صحيح، وأخرجها الطبرانى فى الكبير مختصرا وفيه الدعاء المذكور ، وقال الهيثمى ٦ / ٣٥ : « وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة وبقية رجاله ثقات » .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١٠ / ٢٩٩ .

(٣) الدر المنثور ٤ / ١٩٤ .

رجل بمكة ويزوجوه ما أراد من النساء فقالوا : هذه لك يا محمد وكف عن شتم آلهتنا ولا تذكر آلهتنا بسوء فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك واحدة ولك فيها صلاح قال : « ما هى ؟ » قالوا : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة . قال: « حتى أنظر بالتحقق من ربى » فجاءه الوحى من عند الله: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ** ① ... ﴾ (١) .

وقال ابن إسحاق : (وحدثنى يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظى قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة وكان سيدا قال يوما وهو جالس فى نادى قريش ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة ، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون ، فقالوا : بلى يا أبا الوليد . قم إليه فكلمه فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يابن أخى ، إنك منا حيث قد علمت ، من السطة فى العشيرة ـ السطة : الشرف ـ والمكان فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ،وكفرت به من مضى من آبائهم،فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها ، قال : فقال له رسول الله ﷺ : « قل يا أبا الوليد أسمع » . قال : يابن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفًا سوَّدناك علينا ، حتى لا نقطع أمرًا دونك ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه ، لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا فنبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه . . . حتى إذا فرغ عتبة ، ورسول الله ﷺ يستمع منه ، قال رسول الله ﷺ : « أو قد فرغت يا أبا الوليد ؟ » قال : نعم .

قال : « فاسمع منى » . قال : أفعل .

فقال : **بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حمّ** ① **تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ② **كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ③ **بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ** ④ **وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾** [فصلت] .

ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره ، معتمدا عليها ، يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى

---

(١) الدر المنثور ٦ / ٤٠٤ .

السجدة منها فسجد ثم قال : « قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك » .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبا الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائى أنى قد سمعت قولا ، والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ،ولا بالسحر ،ولا بالكهانة . يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها بى،وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم ،فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ،وعزه عزكم ،وكنتم أسعد الناس به . قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ؛ قال : هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدا لكم . . . [1] .

وقال ابن إسحاق : (اجتمع عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو سفيان ابن حرب ، والنضر بن الحارث ـ بن كلدة ـ أخو بنى عبد الدار ،وأبو البخترى ابن هشام ، والأسود بن المطلب ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبى أمية ، والعاص بن وائل ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان ، وأمية ابن خلف ،أو من اجتمع منهم ، قال : اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه ، فبعثوا إليه :

إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، فائتهم ، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعا ، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بَدَاء ، وكان عليهم حريصا يحب رشدهم ، ويعز عليه عنتهم،حتى جلس إليهم ، فقالوا له : يا محمد ،إنا قد بعثنا إليك لنكلمك ، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فما بقى أمر قبيح إلا قد جئته ، فيما بيننا وبينك ـ أو كما قالوا له ـ فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا،وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا ،فنحن نسودك علينا ، وإن كنت تريد به

---

(١) سيرة ابن هشام ١ / ٢٩٣ ، ٢٩٤ وقال الألبانى : هذه القصة أخرجها ابن إسحاق بسند حسن عن محمد ابن كعب القرظى مرسلا ووصله ابن حميد وأبو يعلى والبغوى من طريق آخر من حديث جابر رضي الله عنه كما فى تفسير ابن كثير ٤ / ٩٠ ، ٩١ وسنده حسن إن شاء الله . فقه السيرة ص ١١٣ وهو مبسوط فى البداية ٣ / ٤٩ ـ ٥٢ .

ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك ـ وكانوا يسمون التابع من الجن رئيا ـ فربما كان ذلك ، بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه ، أو نعذر فيك .

فقال لهم رسول الله ﷺ : « ما بى ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل علىَّ كتابا، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا . فبلغتكم رسالات ربى ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به، فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىَّ أصبر لأمر الله ، حتى يحكم الله بينى وبينكم » . أو كما قال رسول الله ﷺ .

ثم واصلوا، فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ قام عنهم وقام معه عبد الله بن أبى أمية ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ـ وهو ابن عمته، فهو لعاتكة بنت عبد المطلب ـ فقال له : يا محمد ، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أمورا ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل ، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل، ثم سألوك أن تجعل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل ـ أو كما قال ـ فوالله لا أؤمن بك أبدا حتى تتخذ إلى السماء سلما ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها ثم تأتى ، معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وايم الله ، لو فعلت ذلك ما ظننت أنى أصدقك ، ثم انصرف عن رسول الله ﷺ، وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينا آسفا لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه ، ولما رأى من مباعدتهم إياه) (١).

نماذج من أذى المشركين للصحابة رضي الله عنهم :

وما أصابه عليه الصلاة والسلام أصاب أصحابه رضي الله عنهم ، وهم صفوة هذه الأمة ، وعدولها ، وخير البرية وقمتها ، لقد أصابها أقسى أنواع الأذى ، وأشده فصبروا فى الله ، وتحملوا حتى لقوا الله تعالى على ذلك ، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ**

---

(١) سيرة ابن هشام ١ / ٢٩٥ ـ ٢٩٨ وهى فى البداية والنهاية ٣ / ٥٠ ، ٥١ .

لكن سند ابن إسحاق فيه مجهول . قال : حدثنى بعض أهل العلم . وقد ذكر هذا المجهول ابن كثير فى البداية فقال : هو شيخ من أهل مصر يقال له : محمد بن أبى محمد إلا أن الحديث مؤيد بحديث عتبة السابق والذى حسنه الألبانى .

الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) ﴾ [المطففين] .

قال السيوطى فى الدر أخرج عبد بن حميد عن قتادة : (﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩)﴾ قال : فى الدنيا ، ويقولون : والله إن هؤلاء لكذبة وما هم على شىء استهزاء بهم) (١) .

قال ابن إسحاق : ثم إن الإسلام جعل يفشو بمكة فى قبائل قريش فى الرجال والنساء ، وقريش تحبس من قدرت على حبسه ، وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين (٢).

وقال أيضًا : (ثم إنهم عدوا على من أسلم واتبع رسول الله ﷺ من أصحابه فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر) (٣) .

ونقل صاحب البداية عن ابن إسحاق قوله : (ثم إن قريشا تذامروا بينهم على من فى القبائل من أصحاب رسول الله ﷺ) (٤) .

وقال ابن إسحاق : (وكان أبو جهل الفاسق الذى يغرى بهم فى رجال من قريش إذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنعه أنبه وأخزاه وقال : تركت دين أبيك وهو خير منك ، لنسفهن حلمك ، ولنفيلن رأيك (أى نخطئه) ، ولنضعن شرفك ، وإن كان تاجرا قال: والله لنكسدن تجارتك ، ولنهلكن مالك ، وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به . . .) (٥) .

ومن أمثلة ذلك :

١ ـ ما رواه البخارى ـ رحمه الله ـ عن خباب بن الأرت يقول : أتيت النبى ﷺ وهو متوسد بردة وهو فى ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة فقلت : ألا تدعو الله

---

(١) الدر المثور ٦ / ٣٢٨ .
(٢) ابن هشام ١ / ٢٩٤ .
(٣) المصدر السابق ١ / ٣١٧ .
(٤) البداية والنهاية لابن كثير ٣ / ٤٩ .
(٥) سيرة ابن هشام ١ / ٣٢٠ .

فقعد وهو محمر وجهه فقال : « لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه » الحديث (١) .

٢ ـ كما أخرج البخارى أيضا من حديث طويل فى قصة إسلام أبى ذر فقال : « يا معشر قريش،إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . فقالوا : قوموا إلى هذا الصابئ ، فقاموا فضربت لأموت فأدركنى العباس وأكب علىَّ ثم أقبل عليهم فقال : أتقتلون رجلا من غفار . . . فلما أصبح الغداة رجعت فقلت مثل ما قلت بالأمس فقالوا : قوموا إلى هذا الصابئ فصنع بى مثل ما صنع بالأمس . . . » الحديث (٢) .

٣ ـ وأخرج أحمد فى مسنده عن عثمان بن عفان رضي الله عنه من حديث طويل :« . . . ثم قال : ألا أحدثكما عنه يعنى عمَّارًا أقبلت مع رسول الله ﷺ آخذا بيدى نتمشى فى البطحاء حتى أتى على أبيه وأمه وعليه يعذبون فقال أبو عمار : يا رسول الله ، الدهر هكذا ؟ فقال النبى ﷺ : « اصبر » ثم قال :« اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت » (٣) .

٤ ـ ومن قصة إسلام عمر أخرج البخارى عن ابن عمر عن أبيه قال : بينما هو فى الدار خائف إذ جاءه العاص بن وائل السهمى أبو عمرو . . . فقال : ما بالك ؟ قال : زعم قومك أنهم سيقتلونى إن أسلمت . قال : لا سبيل إليك ، بعد أن قالها أمِنتُ فخرج العاص فلقى الناس قد سال بهم الوادى . فقال : أين تريدون ؟ فقالوا : نريد هذا ابن الخطاب الذى صبأ . قال : لا سبيل إليه فكر الناس . . . . الحديث (٤) .

وقال ابن إسحاق : (رجع أبو بكر يومئذ وقد صدعوا فرق رأسه مما جذبوه بلحيته وكان رجلا كثير الشعر) (٥) .

وقال : (وكان أمية بن خلف بن وهب بن حذامة بن جمع يخرج بلالا إذا حميت

---

(١) أخرجه البخارى ٥ / ٥٧ ، وهو فى الفتح ٧ / ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٢) أخرجه البخارى ٦ / ١٤، ١٥ ، وهو فى الفتح ٧ / ٩٣ .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده بتحقيق شاكر ١ / ٣٤٩ ، وقال الألبانى فى تعليقه على فقه السيرة ص ١٠٧ عقب هذا الحديث : وقال الحاكم ٣ / ٣٨٣ : « صحيح على شرط مسلم » ووافقه الذهبى .

(٤) أخرجه البخارى ٥ / ٦٠، وهو فى الفتح ٧ / ١٧٠ .

(٥) سيرة ابن هشام ١ / ٢٩٠.

الشمس فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له : لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى . فيقول وهو فى ذلك البلاء : أحد أحد) (١) .

وقال : (وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه ـ وكانوا أهل بيت إسلام ـ إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة) .

هذه صورة من مرحلة ما قبل النصر ، أما ما بعد النصر فقد كان التشكيك من اليهود ، والتثبيط من المنافقين ، والعصيان فى أحد ، والغرور فى حنين .

هذا الابتلاء كله وذاك الاختبار كله والفئة المباركة صابرة وثابتة على دينها وسائرة على الطريق شعارها قوله تعالى : ﴿ **هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا** (٢٢) ﴾ [الأحزاب] .

هذه المشاهد وغيرها كثير وقعت لتلك الصفوة المباركة بقيادة رسول الله ﷺ على هذه الطريق ـ طريق الدعوة إلى الله ـ ثم تكررت هذه الأحداث على امتداد الألف والأربعمائة عام التى خلت من حياة الإسلام والمسلمين . . . كلما حاول الباطل أن يعتدى على الحق ويصده عن مواصلة رحلته فى النفس البشرية والحياة البشرية . وبما أن العبرة قد حصلت مما سردنا من أمثلة وشواهد من ماضى هذه الأمة فى صورة الرسول ﷺ وهو قمة هذه الأمة ، وصحابته رضي الله عنهم وهم صفوة البشرية .

وسيرهم على هذه الطريق على وعارتها وصبرهم على كل صعابها ، وهم فى تلك القمة يجعل سير الدعاة إلى الله من بعدهم على هذه الطريق من باب أولى ، وعليه فإنى سأنتقل من صدر تاريخ الأمة الإسلامية إلى العصر الحديث دون أن أعرِّج على شىء من مشاهد هذه الطريق فى تلك الحقبة من الزمن على الرغم من أنها مفروشة بأشلاء الضحايا من دعاة الحق فى كل بقعة من تلك الطريق .

وسأبدأ بنقل الشواهد الجديدة من زمن صحوة الأمة الإسلامية ، بعد ما أصابها من صدمات ونكسات هذه الصحوة التى ظهرت إشعاعاتها فى العقد الثالث من القرن الرابع عشر الهجرى .

---

(١) سيرة ابن هشام ١ / ٣١٨ .

لأن كل دعاة اليوم هم امتداد لها ، إما امتداد مباشر أو عن طريق الاطلاع على مبادئها من بعد .

ولأن مخططات القمع والإرهاب ومحاولة الاحتواء بكل متاع هذه الحياة موجهة إلى طلائع ذلك البعث الإسلامى من تلك الصحوة المباركة .وإلى أولئك الدعاة ـ أولئك الدعاة الذين سأحاول جهدى تذكيرهم ببعض ما حدث ويحدث لإخوانهم على هذه الطريق فى هذا العهد ليعتبروا بهم ويتأثروا لهم فى الوقت المناسب .

ومحاولة النجاة بهم مما يعد لهم ويرتب من قبل أعدائهم فى مستقبلهم ليحذروه ويحتاطوا له .

أولا : التذكير ببعض ما حدث ويحدث :

أ ـ المشهد الأول على هذا الطريق من أرض تركستان وما جاورها من البلاد الإسلامية ، الجاثم على صدرها الحكم الشيوعى الغاشم ، وقع هذا المشهد على أرض تكبر مساحتها [١] إفريقيا ، وهى الأرض التى غطاها الإسلام بنوره ثم غمرها المد الشيوعى واغتصبها ، وقد ذهب [٢] ضحية ذلك المشهد ٢٦ مليونا من المسلمين هناك تعذيبا وتقتيلا .وشرد ومسخ باقى الشعوب الإسلامية فى تلك البلاد بأشنع الأساليب وأبشعها .

ذكر الباتكين [٣] أن من وسائل المد الشيوعى لحمل المسلمين على الاعتراف بجرائم لم يرتكبوها ما يلى :

١ ـ إجبارهم على السير حفاة الأقدام على جمرات فحم مشتعلة .

٢ ـ غرس المسامير بين الأظفار .

٣ ـ سكب الزيت المغلى على الجسم .

٤ ـ سلخ جلد الجسم والرأس .

٥ ـ ترك المعذب واقفا على قدميه أياما متوالية .

٦ ـ تعليقه فى جوال من الخيش مبلل على الأشجار فى أشد أيام الشتاء .

---

(١) انظر : الأفعى اليهودية فى معاقل الإسلام لعبد الله التل ص ١١٠ .

(٢) طريق الدعوة فى ظلال القرآن ص ١١٢ لأحمد فايز .

(٣) فى كتابه قضية تركستان الشرقية ص ١٧١ باختصار .

٧ ـ إدخاله وهو عار فى ثلاجات مملوءة بالثلج فى أشد أيام الشتاء .

٨ ـ ضربه بسياط سلكية .

ونقل صاحب طريق الدعوة تتمة ذلك بقوله :

١ ـ دق مسامير طويلة فى الرأس حتى تصل إلى المخ .

٢ ـ إحراق المسجون بعد صب البترول عليه وإشعال النار فيه .

٣ ـ جعل المسجونين هدفا لرصاص الجنود يتمرنون عليه .

٤ ـ حبس المسجونين فى سجون لا ينفذ إليها هواء ولا نور وتجويعهم إلى أن يموتوا .

٥ ـ وضع خوذات معدنية على الرأس وإمرار التيار الكهربائى فيها .

٦ ـ ربط الرأس فى طرف آلة ميكانيكية وباقى الجسم فى ماكينة أخرى ، ثم تدار كل من الماكينتين فى اتجاهات مضادة ، فتعمل كل واحدة مقتربة من أختها حينا ومبتعدة حينا آخر ، حتى يتمدد الجزء من الجسم الذى بين الآلتين ، فإما أن يقر المعذب وإما أن يموت .

٧ ـ كى كل عضو من الجسم بقطعة من الحديد مسخنة إلى درجة الاحمرار .

٨ ـ صب زيت مغلى على جسم المعذب .

٩ ـ دق مسمار حديدى أو إبر الجراموفون فى الجسم .

١٠ ـ تسمير الأظفار بمسمار حديدى حتى يخرج من الجانب الآخر .

١١ ـ ربط المسجون على سرير ربطا محكما ثم تركه لأيام عديدة .

١٢ ـ إجبار المسجون على أن ينام عاريا فوق قطعة من الثلج أيام الشتاء .

١٣ ـ نتف كتل من شعر الرأس بعنف ، مما يسبب اقتلاع جزء من جلد الرأس .

١٤ ـ تمشيط جسم المسجون بأمشاط حديدية حادة .

١٥ ـ صب المواد الحارقة والكاوية فى فم المسجونين وأنوفهم وعيونهم بعد ربطهم ربطا محكما .

١٦ ـ وضع صخرة على ظهر المسجون بعد أن توثق يداه إلى ظهره .

١٧ ـ ربط يدى المسجون وتعليقه بهما إلى السقف وتركه ليلة كاملة أو أكثر .

١٨ ـ ضرب أجزاء الجسم بعصا فيها مسامير حادة .

١٩ ـ ضرب الجسم بالكرباج حتى يدميه ، ثم يقطَّع الجسم إلى قطع بالسيف أو بالسكين .

٢٠ ـ إحداث ثقب فى الجسم وإدخال حبل ذى عقد واستعماله بعد يومين كمنشار لتقطيع قطع من أطراف الجرح المتآكل .

٢١ ـ ولكى يضمنوا أن يظل المسجون واقفا على قدميه طويلا يلجأون إلى تسمير أذنيه فى الجدار .

٢٢ ـ وضع المسجون فى برميل مملوء بالماء فى فصل الشتاء .

٢٣ ـ خياطة أصابع اليدين والرجلين وشبك بعضهما إلى بعض .

٢٤ ـ والنساء حظهن من مثل هذا العذاب أنهن يعرين ويضربن ضربا مبرحا على ثديهن وصدورهن .

أما بقية تعذيب النساء فإننا نمسك عنه ؛ لأن المواقع التى اختاروها من أجسامهن والطرق الدنيئة التى استعملوها تجعلنا نستحى من ذكرها وكتابتها [١] .

هذا مشهد من مشاهد طريق الدعوة إلى الله لا يكاد يتصوره عقل ، لهول عدد ضحاياه ، وشناعة أساليب التنكيل فيه ، ولكنه حقيقة وقعت أحداثها على أرض تركستان الحبيبة وأكدها [٢] أكثر من مصدر موثوق .

ب ـ ومن تركستان إلى الهند لنقل المشهد الثانى من مشاهد هذه الطريق ، وأترك الأستاذ سيد قطب يروى لنا قصة ذلك المشهد كما نقله عنه صاحب طريق الدعوة .

والواقع التاريخى الحديث يعطينا هذه الصورة . إن ما وقع من الوثنيين الهنود ، عند انفصال باكستان لا يقل شناعة ولا بشاعة عما وقع من التتار فى بغداد . إن ثمانية ملايين من المهاجرين المسلمين من الهند ـ ممن أفزعتهم الهجمات البربرية المتوحشة على المسلمين الباقين فى الهند فآثروا الهجرة على البقاء ـ قد وصل منهم إلى أطراف باكستان ثلاثة ملايين فقط ، أما الملايين الخمسة الباقية فقد قضوا فى الطريق بعدما طلعت عليهم العصابات الوثنية المنظمة المعروفة للدولة الهندية جيدا ، والتى يهيمن عليها ناس من

---

(١) طريق الدعوة لأحمد فايز ص ١١٤ .

(٢) انظر : مجلة البلاغ العدد ١١٧ ، وكتاب تركستان من سلسلة مؤلفات محمود شاكر عن البلاد الإسلامية .

الكبار فى الحكومة الهندية ، فذبحتهم كالخراف على طول الطريق وتركت جثثهم نهبا للطير والوحش ، بعد التمثيل بها ببشاعة منكرة لا تقل ـ إن لم تزد ـ على ما صنعه التتار بالمسلمين من أهل بغداد .

أما المأساة البشعة المروعة المنظمة فكانت فى ركاب القطار الذى نقل الموظفين المسلمين فى دوائر الهند إلى باكستان ، حيث تم الاتفاق على هجرة من يريد الهجرة من الموظفين المسلمين فى دوائر الهند إلى باكستان ، واجتمع فى هذا القطار خمسون ألف موظف . . ودخل القطار بالخمسين ألف موظف فى نفق بين الحدود الهندية الباكستانية يسمى (ممر خيبر) وخرج من الناحية الأخرى وليس به إلا أشلاء ممزقة متناثرة فى القطار . . لقد أوقفت العصابات الهندية الوثنية المدربة المواجهة للقطار فى النفق ولم تسمح له بالمشى فى طريقه إلا بعد أن تحول الخمسون ألف موظف إلى أشلاء ودماء وصدق الله سبحانه : ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاً وَلا ذِمَّة ﴾ [التوبة : ٨].

وما تزال هذه المذابح تتكرر فى صور شتى حتى الآن .

كذلك قامت العصابات الهندية بإبادة المسلمين إبادة تامة فى ولايات (بهرات بور) و (الوار) و (كابور تالا) وكان عددهم فى هذه الولايات على التوالى : ١١٠ آلاف، و ٢٥٠ ألفًا ،و ٢١٣ ألفًا و٧٠٤ ، فلم يعد أحد منهم يرى النور . ولقد بلغ قتلى المسلمين خلال المذابح التى جرت فى شرقى البنجاب فى شهر أغسطس سنة ١٩٤٧م وفقا لتعداد رسمى ٤٧٢ ألف نفس . . ثم ماذا فعل خلفاء التتار فى الصين الشيوعية وروسيا الشيوعية بالمسلمين هناك ؟ لقد أبادوا من المسلمين فى خلال ربع قرن ستة وعشرين مليونا . . بمعدل مليون فى السنة،وما تزال عمليات الإبادة ماضية فى الطريق. . وذلك غير وسائل التعذيب الجهنمية التى تقشعر لها الأبدان (١) .

ونحن بحكم بعدنا عن هذه الأحداث وعدم ملامستنا لها ، قد يساورنا شك فى صحتها ، أو أنها مبالغ فيها ، والحقيقة أن الأرقام المذكورة لضحايا هذا المشهد قد لا تكون قد استقصت كل الأشلاء التى ترامت فى كل مكان من ذلك المشهد ،حيث إن المحصى قليلا ما يدقق فى مثل هذه الحالات الحرجة ، وحيث إن كثيراً من الضحايا وقعت بعيدا عن أعين الناس .

فالذى أريد تأكيده أن أرقام الضحايا أكثر بكثير مما ذكر ، خاصة أن أجهزة الإعلام

---

(١) من طريق الدعوة فى ظلال القرآن ، ص ١١١، ١١٢ .

وهى المعتمدة فى نقل أحداث العالم بيد الكفر ،وتنشر ما تريد وتخفى ما لا تريد نشره، وعلى الرغم من ذلك فإن أخبار [1] تلك الوحشية فى معاملة المسلمين فى الهند تتسرب إلينا بين حين وآخر ، وفيها ما يدمى القلب ويحرق الفؤاد لما يصيب المسلمين هناك ولا حول ولا قوة إلا بالله .

جـ ـ من المشهد الثانى على أرض الهند إلى مشاهد متعددة حدثت فى أماكن مختلفة فى العالم الإسلامى ، مستهدفة عناصر البعث الإسلامى من الأمة الإسلامية ، وموجهة من قوى عالمية ذات طابع كفرى واحد ، تلك القوى هى: أمريكا ، وروسيا ، وبريطانيا ، وفرنسا [2] ، قررت ذلك فى اجتماع لسفرائها فى القاهرة عام ١٩٥٤م .

وقد كان لها ذلك بواسطة أذنابها فى البلاد الإسلامية ،كان لتلك القوى ما أرادت.

فضربت الحركة الإسلامية فى إندونيسيا وفى مقدمتها حزب ماشومى ، وقتل أكثر رجالها وشرد الباقون .

وضربت الجماعة الإسلامية فى القارة الهندية وحكم على مؤسسها الأستاذ أبو الأعلى المودودى بالإعدام [3] .

وضربت جماعة الإخوان المسلمين فى البلاد العربية ، وقتل قادتها وسجن وشرد الباقى ، وصودرت أموالها وممتلكاتها [4].

---

(١) انظر الأعداد التالية من مجلة المجتمع الكويتية : ١٢٧، ١٩٣، ٢٦٢ ، ٤٢٨ ، ٤٥١ .ومجلة الاعتصام المصرية العدد التاسع .

(٢) ذكر ذلك الشيخ سعيد حوى فى محاضرة له عن سيد قطب فى طيبة الثانوية بالمدينة المنورة . وذكر ذلك الأستاذ جابر رزق فى كتابه .

(٣) انظر كتاب تاريخ الدعوة الإسلامية فى الهند صفحة ٢٢٥ ـ ٢٩٣ (مسعود عالم الندوى) . وانظر :
- الجماعة الإسلامية بالهند .
- الجماعة الإسلامية فى باكستان .
- الجماعة الإسلامية فى سطور . وهى رسائل صدرت عن الجماعة فى الهند .

(٤) انظر المصادر التالية لتقف على أنواع التعذيب والقتل والتشريد الذى أصاب هذه الجماعة :
- مؤامرة ضد الإسلام فى مصر . رسالة صدرت عن الجماعة .
- العالم الربانى . عشماوى أحمد سليمان .
- نافذة على الجحيم .
- حسن البنا مواقف فى الدعوة . عباس السيسى .
- وثيقة خطيرة .
- الأسرار الحقيقية فى اغتيال حسن البنا . جابر رزق .
- القابضون على الجمر . محمد أنور رياض .

وضرب حزب فدائيان [١] إسلام فى إيران وحكم بالقتل على كل أفراده .

كل هذه الإبادة لعناصر البعث الإسلامى كانت فى أيام معدودة [٢] ومتقاربة ، ثم واصلت تلك القوى ضرب العناصر الإسلامية [٣] والأمة الإسلامية .

ففى يوم واحد أبيدت جزيرة أبا فى السودان بكل سكانها [٤] .

وفى يوم واحد قتل فى جزيرة زنجبار أكثر من خمسة عشر ألف مسلم ، وفى الفلبين قتل [٥] أكثر من ثمانين ألف مسلم وحرقت مدنهم وقراهم ، وفى أوغندا [٦] دخلت تلك القوى سافرة فى حرب مباشرة مع المسلمين قتل على إثرها جل الشعب المسلم هناك وشرد من أرضه ووطنه ، وفى لبنان [٧] مر ويمر المسلمون بمحنة قاتلة فى الحرب الأهلية الأخيرة ، وفى تشاد [٨] تدور حرب أهلية طاحنة هدفها الرئيس إبادة المسلمين .

وفى المغرب [٩] تطارد العناصر الإسلامية . وما جرى فى أفغانستان [١٠] من تقتيل

= ـ فى الزنزانة . د . على جريشة .
ـ لماذا أعدم سيد قطب ؟
ـ مجلة المجتمع الكويتية العدد ٢٦٥ .
ـ الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية . د . إسحاق الحسينى .
ـ الشيخ حسن البنا ومدرسة الإخوان المسلمين . رؤوف شلبى .
ـ الإسلام والداعية . الهضيبى .
ـ هذا الدين بين جهل أبنائه وكيد أعدائه . محمد الوكيل .
ـ المقاومة السرية فى القناة : كامل الشريف .
ـ أيديولوجية الإخوان المسلمين . ريتشارد ميتشيل .
ـ قضيتنا . فهمى أبو غدير .
ـ مجلة الدعوة المصرية أعداد ٧ ، ١٤، ١٥ ، ٣٣ ، ٣٩ ، ٤٠ .

(١) الأفعى اليهودية فى معاقل الإسلام ص ١٤٤ ـ ١٧١ .
(٢) نفذ كل هذا ما بين سنة ١٩٥٤ ، ١٩٥٥م .
(٣) انظر : الأفعى اليهودية فى معاقل الإسلام ص ١٨٧ ـ ١٩٩ .
(٤) المجتمع الكويتية العدد ٤٨٤ .
(٥) مجلة المجتمع الكويتية الأعداد التالية : ١٠٩، ٢٦٢، ٢٦٩ ، ٤٦٢ ، والأمان اللبنانية العدد ٧ .
(٦) الأفعى اليهودية ص ١٨٧ ، والاعتصام المصرية عدد ١٠ .
(٧) انظر : المجتمع الكويتية العددان : ٢٨٧، ٢٩٤ .
(٨) الأفعى اليهودية ص ١٩٧ ، ١٩٨ .
(٩) المجتمع الكويتية العددان : ٤٦١ ، ٤٨٥ .
(١٠) انظر : المجتمع الكويتية الأعداد الآتية :٤٥٧ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢، ٤٦٤، ٤٦٥ ، ٤٦٧ ، ومجلة الإصلاح القطرية العدد ١٨ ، ومجلة الدعوة المصرية العدد ٤٨ .

obeikandl.com

للشعب الأفغانى بمخلب الدب الروسى أكبر دليل على ذلك .

لقد سلط ذلك الأخطبوط الرباعى [1] أضواءه على عناصر الدعوة الإسلامية والبعث الإسلامى فى كل مكان فأنشب مخالبه فى ذلك البعث الهادر .

ولكن ذلك التسلط الشامل وذلك السحق الوحشى لم يزد تلك الطلائع إلا تمسكا بتعاليم دينها ونشرها وتضحية فى سبيلها ،ولم يزدها إلا عنادا للباطل وخروجا عليه . عبر عن ذلك شاعرهم فى قصيدته المشهورة : من وراء القضبان [2] .

---

(١) الذى هو أمريكا وروسيا وبريطانيا وفرنسا .

(٢) والتى نصها :

أخـى أنـت حـر وراء السـدود ... أخـى أنـت حـر بتلـك القيـود
إذا كنـت بالله مستعصمـا ... فمـاذا يضيـرك كيـد العبيـد
أخـى ستبيـد جيـوش الظـلام ... ويشـرق فى الكـون فجـر جديـد
فأطلـق لروحـك أشواقهـا ... تـرى الفجـر يرمقنـا مـن بعيـد
أخى قـد أصابـك سهـم ذليل ... وغـدرا رمـاك ذراع كليـل
ستبتـر يومـا .. فصبـر جميـل ... ولـم يـرم بعـد عريـن الأسـود
أخى قـد سـرت مـن يديـك الدماء ... أبـت أن تشـد بقيـد الإمـاء
سترفـع قربانهـا للسمـاء ... مخضبـة بوسـام الخلـود
أخى هـل تـراك سئمـت الكفـاح ... وألقيـت عـن كاهليـك السـلاح
فمـن للضحايـا يواسـى الجـراح ... ويرفـع راياتهـا مـن جديـد
أخـى هـل سمعـت أنيـن التراب ... تـدك حصـاه جنـود الخـراب
تمـزق أحشاءهـا بالحـراب ... وتصفعـه وهـو صلـب عنيـد
أخـى إننى اليـوم صعـب المـراس ... أدك صخـور الجبـال الرواسـى
غـدا سأشـج بفـأس الخـلاص ... رؤوس الأفاعـى إلـى أن تبيـد
أخـى إن ذرفـت علـىَّ الدمـوع ... وبللـت قبـرى بهـا فـى خشوع
فأوقـد لهـم مـن رفاتـى الشموع ... وسيـروا بهـا نحـو مجـد تليـد
أخـى إن نمـت نلقـى أحبابنـا ... فروضـات ربـى أعـدت لنـا
وأطيارهـا رفرفـت حولنـا ... فطوبـى لنـا فـى ديـار الخلـود
أخـى إننـى مـا سئمـت الكفـاح ... ولا أنـا ألقيـت عنـى السـلاح
وإن طوقتنـى جيـوش الظـلام ... فإنـى علـى ثقـة بالصبـاح =

وأجابة آخر مؤكدا مواصلة السير على الطريق [1] مهما كانت العقبات والصعاب.

= وإنى على ثقة من طريقى إلى الله رب السنا والشروق
وإن عاقنى السَّوق أو عقنى فإنى أمين لعهدى الوثيق
فإن أنا مت فإنى شهيد وأنت ستمضى بنصر مجيد
أخى أخذوك على إثرنا وفوج على إثر فوج جديد
قد اختارنا الله فى دعوته وإنا سنمضى على سنته
فمنا الذين قضوا نحبهم ومنا الحفيظ على دعوته
أخى فامض .. لا تلتفت للوراء طريقك قد خضَّبته الدماء
ولا تلتفت ههنا أو هناك ولا تتطلع لغير السماء
ولسنا بطير مهيض الجناح ولن نستذل ولن نستباح
وإنى لأسمع صوت الدماء قويا ينادى .. الكفاح الكفاح
سأثأر ولكن .. لرب ودين وأمضى على سنتى فى يقين
فإما إلى النصر فوق الأنام وإما إلى الله فى الخالدين

« المرحوم سيد قطب إبراهيم »

انظر : كتاب لماذا أعدم سيد قطب تجد القصيدة فيه.

(١) وأجابه شاعر الموصل بقصيدة إليك نصها :

أخى سوف تبكى عليك العيون وتسأل عنك دموع المئين
فإن جف دمعى سيبكى الغمام يرصع قبرك بالياسمين
أخى إن قضيت ستحيا بنا كأن لم يمر عليك الفنا
فتمرح مهما احتوتك القيود وتنعم بالحب ما بيننا
أخى عند ذكرك تجرى الدموع لتربأ صدع الفؤاد الهلوع
وتسجد فى سيرها للإله وتذكركم عنده فى الركوع
أخى أنت مصباح هذى الحياة تموت لتبعد عنها الممات
فأشعل لها فى الظلام الظلوم منار الشعوب ونار الطغاة
أخى قد مضى سنة بالمثل فكان شهيدا وكان بطل
فإن ذقت أنت صنوف العذاب فإنك فى دربهم لم تزل
أخى ما لنا لسكوت سبيل فلا يوهمنك صمت طويل

obeikandl.com

ثانيا : خطط الكفر المستقبلية :

بعد أن أوجزت فى مشاهد المحن التى مرت بالمسلمين فى عهدهم القريب ولا تزال، أوجز أيضا فى المخططات المستقبلية لقوى الشر فى حَرْب الأمة الإسلامية وسحق طلائع البعث الإسلامى ، فعلى الرغم من وضوح الهدف عن تلك القوى الكافرة وهو تشتيت الأمة الإسلامية وإخماد كل صوت ينادى بوحدتها ورفع رايتها . وعلى الرغم من أن الوسائل المستعملة للوصول إلى ذلك الهدف الرهيب واضحة لهم أيضا من قديم الزمان ومتشابهة ومتواصى بها كافرا عن كافر .

قال تعالى : ﴿ **كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨)** ﴾ [البقرة] ، ﴿ **أَتَوَاصَوْاْ بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣)** ﴾ [الذاريات] .

= فحقك ينشد فى كل سمع ... سنثأر يوما فصبر جميل

أخى ستنير الدماء الظلام ... وتزرعه رحمة وسلام

فيا سحب غطى شعاع الهلال ... سيشرق بعدك بدر التمام

أخى إننا ما أسأنا الظنون ... بروح قوى وجسم طعين

فماذا تروم لديك الخطوب ... وماذا يضيرك كيد السنين

أخى ما يريدون من مؤمن ... له قبره أفضل المسكن

هلمى أيا حادثات الزمان ... فلن تجدى فيه من موهن

أخى لن ننام وتحى السهاد ... أخى سنحرك قلب الجماد

أخى إن إيماننا لكفيل ... يهز الرواسى ومحق الفساد

أخى ما يئسنا .. ولن نيأسا ... وما طال فى القلب لبث الأسى

وما حل أفئدة المؤمنين ... سوى أمل فى الجنان رسا

أخى لست وحدك فى الامتحان ... فكن رابط الجأش صلب الجنان

ستصرخ بالظلم كل الشفاه ... ويهزأ بالموت كل لسان

أخى أنت فى النار فى المرجل ... ونحن على بعدها نصطلى

فكن مشعلا خالدا لا يزول ... فنحن الوقود لذا المشعل

أخى فانتظر ولتعش فى غد ... سينشق الأمل السرمدى

فإن فرقتنا سنى الحياة .. ... فإنا مع النصر فى موعد

وإنـا مع اللـه فى موعـد

على الرغم من وضوح ذلك كله إلا أن للتجارب والملاحظات دورا كبيرا فى المزيد من الخبث والمكر فى المؤامرات على الأمة الإسلامية .

ففى العقدين الماضيين نزلت الاستخبارات الأمريكية [١] البريطانية بصفوة رجالها إلى الشرق الإسلامى للإشراف المباشر على خطط السحق والتدمير لقوة الأمة الأسلامية، فى صورة طلائعها المباركة وهى الخطط التى ظهرت أخيرا فى صورة كتب ووثائق منشورة بعد أن أعطت ثمارها . منها على سبيل المثال لا الحصر كتاب لعبة الأمم لمايلز كوبلاند وهو الكتاب الذى كان مؤلفه [٢] على رأس اللجنة الموجودة للجهاز التنفيذى للخطة ـ وهى الانقلابات العسكرية ـ وهو الجهاز الذى استطاع ضرب الحركة الإسلامية وعرقلة سيرها لفترة من الزمن دون أن ينتصر عليها ، حيث إنه ذهب ملعونا من الله وملائكته والناس أجمعين وبقيت الأمة الإسلامية بقيادة طلائعها المباركة كأقوى ما تكون وأعظم ما تكون .

وكما أن تلك القوى الكافرة قد فشلت فى مواجهة الحركة الإسلامية بالجهاز المشار إليه فإنها ستفشل مهما جاءت ببدائل لذلك الجهاز الفاشل ؛ لأن كيدهما مهما يكن فهو كيد بشر هزيل وكيد شيطانى ضعيف ، قال تعالى : ﴿ **فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا** (٧٦) ﴾ [النساء] أمام حفظ إلهى للإسلام ودفاع ربانى عن المؤمنين الصادقين .

قال تعالى : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** (٩) ﴾ [الحجر] ، ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ** (٣٨) ﴾ [الحج] .

ومنها الوثيقة الخطيرة التى وضعت لإبادة الحركة الإسلامية فى مصر وهى الوثيقة التى نفذت بموجبها محنة الإخوان المسلمين فى مصر فى العقد السابع من القرن العشرين الميلادى باعتراف واضعيها [٣] ومنفذيها وكما جاء مفصلا فى المصادر التى أشرنا إليها فى محنة الجماعة المذكورة ، وهى الوثيقة المرفقة بملحقات هذه الرسالة لأهميتها [٤] .

وبما أن تلك الخطط قد كشفها الله تعالى ،فقد فكرت أجهزة الكفر فى إيجاد خطط

---

(١) انظر :السياسة الأمريكية والثورة المصرية لمايلز كوبلاند ص ٩ باختصار .

(٢) انظر: الكتاب نفسه ص ٩ .

(٣) انظر : دفاع د . عبد الله رشوان عن شكرى مصطفى ، حيث ذكر الوثيقة المشار إليها وبيَّن أسماء الذين وضعوها ونفذوها واعترافاتهم بذلك .

(٤) انظر: الملحق رقم (١) والمنقول عن مجلة الأمان اللبنانية عدد ١٣ وتاريخ ٢٠ جمادى الأولى من سنة ١٣٩٩هـ .

جديدة أشد مكرا وخبثا لضرب التيار الإسلامى القادم الذى يهدد الكفر فى كل أرجاء الأرض فمن هذه الخطط :

١ ـ التقرير المرفوع إلى بعض المسؤولين [١] فى البلاد العربية لمكافحة التيار الدينى فى بلده والعالم الإسلامى ، وهو التقرير الذى تعاونت على إعداده صفوة رجال الاستخبارات الأمريكية والإسرائيلية وبعض استخبارات الدول العربية .

٢ ـ التقرير المرفوع من ريتشارد ب ميتشيل [٢] إلى رئيس هيئة الاستخبارات المركزية الأمريكية،وهو التقرير الذى ينصح فيه بالكيفية الجديدة لضرب الحركة الإسلامية والأمة الإسلامية ، وهما التقريران اللذان سيكونان من الملحقات الوثائقية لهذه الرسالة لاحتوائهما على البنود التى ستتبع مستقبلا فى ضرب الإسلام والمسلمين .

والذى يجب على قيادات العمل الإسلامى والدعاة الإسلاميين فى كل مكان إحباطها بكشفها للمسلمين وأخذ كل الاحتياطات اللازمة لتجنب الأمة الإسلامية خطرها ومكايدها . وأخذها بعين الاعتبار فى خطط العمل الإسلامى الأمنية .

وليكن الدعاة الإسلاميون أكبر من قوى الكفر تنظيما وتخطيطا وتنفيذا ولا يصح أبدا أن يلدغوا من جحر مرتين ، أى إذا استطاعت قوى الكفر بخططها الماضية النيل من العمل الإسلامى والأمة الإسلامية . فلا يصح بحال من الأحوال أن تعطى فرصة ثانية لضرب الدعوة الإسلامية والعمل الإسلامى والله تعالى ولى المؤمنين .

خلاصة هذا الموضوع :

وخلاصة موضوع طبيعة طريق الدعوة إلى الله . أنها طبيعة شاقة على النفس البشرية ولكن لا بد منها للوصول بالعمل الإسلامى إلى غايته .

ولقد تذوق هذه الطبيعة كل الذين ساروا على طريق الدعوة إلى الله من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم حيث هى الطريق الوحيد إلى الجنة .

وأن هذه الطبيعة ذات ألوان كثيرة قد تكون فى صورة غياهب سجون وأدوات تعذيب رهينة وأعمدة مشانق . وقد تكون فى صورة بسط متاع ورغد عيش ، وقد تكون فى صورة غرور ينسى صاحبه الله تعالى واليوم الآخر .

وإن لهذه الطبيعة هدفا هو معرفة الصالح من الطالح ،ونفى الخبيث عن الطيب،

---

(١) هو حاكم مصر أنور السادات . انظر : نص التقرير فى الملحق رقم (٢) .

(٢) انظر:التقرير فى الملحق رقم (٣) والمنقول عن مجلة المجتمع الكويتية عدد ٤٢٨ وتاريخ ١٧/ ٢ / ١٣٩٩ هـ .

وتصفية الصف من أسباب الخبال ، وإبعاد اللبنة الهشة من البناء .

هذه هى خلاصة موضوع طبيعة الطريق إلى الله ، على الدعاة أن يتدبروها ويقفوا عندها طويلا ، وألا يدخلوا من استجاب لدعوتهم فى هذه الطريق إلا بعد أن يبصروهم بطبيعتها ويدربوهم على نماذج منها ،حتى لا يسقطوا فى أثناء الطريق فيخسرون جميعا .

والله ولى التوفيق وهو المستعان .

obeikandl.com